

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الجهاد في فكر سيد قطب (من خلال تفسير الظلال)

إعداد
ثائر عمر عبد الحفيظ القطو

إشراف
د. عودة عبد الله

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين
بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2017م

الجهاد في فكر سيد قطب

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة

إلى أمي الحانية

إلى زوجتي الغالية

إلى أولادي (فتادة ولجين) اللذين أسأل الله أن يصنعهم على عينه ويجعلهم من الصالحين

إلى أئمة الدعوة والجهاد فوق كل أرض وتحت كل سماء

إلى مشايخي الأعزاء

إلى أصدقائي الأوفياء

إلى إخوتي الشهداء

إلى إخواني الغرباء

في كل مكان

أهدي هذا العمل المتواضع

الشكر والتقدير

الشكر أولاً لله وحده أن وفقني وكان لي خير معين.

ثم أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من مدّ لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الدراسة، وأخص

بالذكر:

د. عودة عبد الله

الذي بذل عظيم الجهد لتبصر هذه الدراسة النور.

فله مني كل تقدير ووفاء.

كما أتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى عضوي لجنة المناقشة، الدكتور خالد علوان والدكتور محمد

يوسف الديك اللذين تفضلاً بقبول مناقشة هذه الرسالة، وإثرائها بتوجيهاتهم المباركة.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان

الجهاد في فكر سيد قطب

(من خلال تفسير الظلال)

أقر بأن ما شملت عليه الرسالة هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة علمية أو بحثية

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degrees or qualifications.

Student's Name

اسم الطالب: ثائر عمر عبد الحفيظ القطو

Signature

التوقيع: ثائر قطو

Date

2017 / 09 / 20

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان	العدد
ت	الإهداء	1
ث	الشكر والتقدير	2
ج	الإقرار	3
ح	فهرس المحتويات	3
ز	المخلص	4
1	المقدمة	5
9	الفصل الأول سيد قطب ومكانته العلمية	6
10	المبحث الأول: تعريف عام بسيد قطب	7
13	المبحث الثاني: الحياة الأدبية والفكرية لسيد قطب	8
13	المطلب الأول: جوانب الحياة الأدبية والفكرية عند سيد قطب	9
14	المطلب الثاني: المراحل الفكرية التي مرَّ بها سيد قطب	10
17	المبحث الثالث: تعريف عام بتفسير الظلال ومنهج سيد قطب في التفسير	11
17	المطلب الأول: تعريف عام بتفسير الظلال وقيمته العلمية	12
18	المطلب الثاني: منهج سيد قطب في التفسير	13
18	أولاً: النظرة الكلية الشاملة للقرآن	14
20	ثانياً: التأكيد على المقاصد الأساسية للقرآن	15
21	ثالثاً: بيان المهمة العملية الحركية للقرآن	16
22	رابعاً: المحافظة على جو النص القرآني	17
23	خامساً: دخول عالم القرآن بدون مقررات سابقة	18
23	سادساً: الثقة المطلقة بالنص القرآني	19
24	سابعاً: بيان أهمية العقيدة وأثرها	20
26	ثامناً: إزالة التعارض الموهوم بين النصوص	21
27	تاسعاً: البعد الواقعي للنصوص	22
28	عاشرأ: بيان حكمة التشريعات	23
30	الفصل الثاني أهمية الجهاد ومقاصده وخصائصه عند سيد قطب	24
31	المبحث الأول: أهمية الجهاد عند سيد قطب	25
41	المبحث الثاني: مقاصد الجهاد عند سيد قطب	26
41	أولاً: تحقيق الأمن للمسلمين ودفع الفتنة والأذى عنهم	27
43	ثانياً: تقرير حرية الدعوة الإسلامية	28
43	ثالثاً: إقامة النظام الإسلامي وحمايته	29
44	رابعاً: إقامة العدالة الكبرى في الأرض	30
46	المبحث الثالث: خصائص الجهاد عند سيد قطب	31
46	المطلب الأول: جهاد رباني	32

48	المطلب الثاني: جهاد عقائدي	33
52	المطلب الثالث: جهاد واقعي	34
53	الأولى: واقعية الجهاد في مواجهة الواقع بوسائل مكافئة له	35
53	الثانية: واقعية الجهاد في عرض أحكامه وتشريعاته وحقائقه	36
54	الثالثة: واقعية الجهاد في تشريعه	37
55	الرابعة: واقعية الجهاد في معالجة القضايا الناشئة عنه	38
55	المثال الأول: واقعية الجهاد في معالجة مسألة الأنفال	39
56	المثال الثاني: واقعية الجهاد في مزاولة مبدأ الشورى	40
57	المثال الثالث: واقعية الجهاد في القتال في الأشهر الحرم	41
59	المثال الرابع: واقعية الجهاد في معالجة قضية الرق	42
60	المثال الخامس: واقعية الجهاد في معالجة قضية الإماء والسبايا	43
61	المطلب الرابع: جهاد متوازن	44
61	المثال الأول: التوازن في استخدام القرآن أسلوب الترغيب والترهيب، والقوة واللين في آيات الجهاد	45
62	المثال الثاني: التوازن في النصوص القرآنية التي تأمر المسلم بأخذ الحيطة والحذر من العدو، والنصوص التي تأمر المسلمين بإعداد العدة ومواجهة أعداء الله	46
63	المثال الثالث: التوازن في تقرير آيات الجهاد للفاعلية المطلقة لقدر الله وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية وظهور آثاره على النشاط البشري	47
64	المثال الرابع: التوازن بين الكلمة التي تقال باللسان وبين الحقيقة الواقعية في النفس البشرية	48
64	المثال الخامس: التوازن القرآني في بناء الفكر الجهادي عند الفرد المسلم	49
65	المطلب الخامس: جهاد عالمي	50
68	المطلب السادس: جهاد حركي	51
70	المطلب السابع: الثبات	52
72	الفصل الثالث خصائص تفسير آيات الجهاد في الظلال	53
73	المبحث الأول: ربط الموضوع بالعقيدة	54
77	المبحث الثاني: الوضوح والصرامة	55
81	المبحث الثالث: الجدوية في الطرح	56
83	المبحث الرابع: معايشة وقت التنزيل	57
85	المبحث الخامس: الثقة المطلقة بالنص والتسليم بدلالته	58
87	المبحث السادس: بروز الجانب التربوي	59
90	المبحث السابع: نقض الأفكار المجانبة للصواب ورد الشبهات	60
93	المبحث الثامن: ربط النصوص بالواقع المعاصر	61
95	الفصل الرابع العمق القرآني لشعيرة الجهاد عند سيد قطب	62
96	المبحث الأول: السور القرآنية المحورية في الفكر الجهادي عند سيد قطب	63
96	المطلب الأول: مكانة سورة البقرة في الفكر الجهادي عند سيد قطب	64
97	المطلب الثاني: مكانة سورة الأنفال في الفكر الجهادي عند سيد قطب	65
99	المطلب الثالث: مكانة سورة براءة في الفكر الجهادي عند سيد قطب	66

67	المطلب الرابع: نماذج لبعض التعديلات القرآنية النهائية على أحكام الجهاد المرحلية	100
68	المطلب الخامس: نماذج لبعض القواعد والمبادئ الجهادية العامة المتقدمة من ناحية النزول والتي بقيت ثابتة لم تتغير من ناحية المبدأ، وتم اعتبارها في المراحل النهائية لتشريع الجهاد	102
69	المبحث الثاني: علاقة الجهاد في سبيل الله بشعائر الدين الأخرى عند سيد قطب	104
70	المطلب الأول: تناسب آيات الجهاد في سبيل الله مع آيات الإنفاق في سبيل الله	104
71	المطلب الثاني: علاقة فريضة الجهاد في سبيل الله بفريضة الصوم	107
72	المطلب الثالث: علاقة الجهاد في سبيل الله بالصبر	108
73	المبحث الثالث: مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب	112
74	المطلب الأول: التدرج القرآني في تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب	112
75	المرحلة الأولى: منع الجهاد	114
76	المطلب الثاني: أسباب الكف عن الجهاد في المرحلة المكبية حسب اجتهاد سيد قطب	115
77	المرحلة الثانية: الإذن بالجهاد	116
78	المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد إذا ابتدأهم العدو بالقتال	117
79	المرحلة الرابعة: الأمر بجهاد المشركين كافة	118
80	المبحث الرابع: نماذج جهادية قرآنية في تفسير الظلال	119
81	المطلب الأول: التجربة الجهادية الأولى (تجربة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت)	119
82	المطلب الثاني: التجربة الجهادية الثانية (تجربة بني إسرائيل من بعد موسى)	120
83	الفصل الخامس معالجة سيد قطب للشبهات المثارة حول الجهاد	124
84	المبحث الأول: شبهة أن الجهاد وسيلة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام	129
85	المبحث الثاني: شبهة تعارض الجهاد مع سماحة الإسلام	129
86	المبحث الثالث: شبهة أن الجهاد حالة طارئة	131
87	المبحث الرابع: شبهة أن الجهاد مقتبس من الحضارات السابقة	136
88	المبحث الخامس: شبهة قصر الجهاد على أحد أفراد (جهاد الدفع)	138
89	المبحث السادس: شبهة انتصار الباطل على الحق في بعض الحالات	145
90	المبحث السابع: شبهة أن الجهاد وسيلة لاسترقاق الأسرى وسبي النساء	148
91	المبحث الثامن: شبهات حول دور المرأة في الجهاد	151
92	المبحث التاسع: شبهات حول المرحلية في الجهاد عند سيد قطب	153
93	الخاتمة	159
94	مسرد الآيات القرآنية	165
95	مسرد الأحاديث النبوية	172
96	فهرس المصادر والمراجع	173

B	Abstract	97
---	----------	----

الجهاد في فكر سيد قطب
(من خلال تفسير الظلال)
إعداد
ثائر عمر عبد الحفيظ القطو
إشراف
د. عودة عبد الله
المخلص

تهدف هذه الدراسة إلى بيان موضوع الجهاد في سبيل الله من منظور رجل من رجال الدعوة والعلم في العصر الحديث، ألا وهو سيد قطب -رحمه الله- من خلال أكبر مشاريعه العلمية (في ظلال القرآن)، وأهمية الجهاد في سبيل الله، ومقاصده، وخصائصه التي يتميز بها، والصفات التي يتميز بها تفسيره لآيات الجهاد في سبيل الله، والمراحل التشريعية التي مرّ بها الجهاد في سبيل الله، والشبهات التي أثّرت حوله، كل ذلك من خلال اتباع المنهجين الاستقرائي والتحليلي.

تتكون هذه الدراسة من خمسة فصول وخاتمة، تناولت في **الفصل الأول** التعريف بسيد قطب من ناحية الولادة، والنشأة، والاستشهاد، ثم ذكرت بعض الجوانب الأدبية والفكرية عند سيد قطب، والمراحل الفكرية التي مرّ بها خلال حياته، وأنهيته بتعريف عام بتفسيره، وبعض القواعد المنهجية التي اتبعتها فيه.

أما **الفصل الثاني**: فقد ذكرت فيه أهمية الجهاد عند سيد قطب، والمقاصد العامة للجهاد في سبيل الله التي شرع من أجلها، وبعض الخصائص التي نصّ عليها سيد للجهاد في تفسيره والتي منها: أنه جهاد ربانيّ مشروع في الكتاب والسنة، واعتبار هذه الخصيصة من أهم الخصائص التي تندرج تحتها بقية الخصائص، ومنها أنه جهاد عقائدي والبعث الذي تعطيه هذه الخصيصة لشعيرة الجهاد في سبيل الله، وكذلك أنه جهاد واقعي وما يترتب عليه من اعتبارات، ومنها أنه جهاد متوازن وبعض الصور والأمثلة على توازنه، ومنها كذلك أنه جهاد عالمي موضوعه نوع الإنسان ومجاله الأرض جميعها، والسمة الأخيرة الثابتة في الخطوط العامة ذات الطابع العقائدي، وإبداؤه المرونة فيما عداها من الأمور التي يعتبر فيها الشرع الواقع، والمرحلة التي تمرّ بها الجماعة المسلمة وغيرها.

أما **الفصل الثالث**: فتناولت فيه خصائص تفسير سيد لآيات الجهاد في سبيل الله، وأنه يربط موضوع الجهاد بالعقيدة، وما يعكسه هذا الربط من انطباع على الجهاد، والوضوح والصراحة البادية في تفسيره، مع ما تميز به من جدية في الطرح، كما تبدو معاشته لوقت التنزيل واضحة في تفسيره لآيات الجهاد، والثقة التي أظهرها في النصوص والتسليم بدلالاتها القرآنية، مع بروز الجانب التربوي المراد من النصوص، كما لا يغفل الرد على الشبهات بمنهج فريد متميز، بالإضافة إلى ربط النصوص بالواقع، وإحياء النصوص في حياتنا المعاصرة.

أما **الفصل الرابع**: فذكرت فيه السور المحورية التي اعتمد عليها سيد في فكره الجهادي، وأمدته بالقوة العلميّة، كما تحدث فيه عن علاقة الجهاد بشعائر الدين الأخرى، وترابطها به، ومجيئها في سياق واحد، والحكمة من هذا كله، كما تطرق للمراحل التي مرّ بها الجهاد في سبيل الله، وبعض النماذج الجهادية التي ذكرها القرآن الكريم، واستخلاص الدروس والعبر منها.

أما **الفصل الخامس**: فقد جمعت فيه الشبهات التي أثيرت حول الجهاد في سبيل الله كما ذكرها سيد في تفسيره، ثم اتبعتها برد سيد عليها بأسلوبه القوي الفذ.

أما الخاتمة، فتوجز الحديث عن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث عبر هذه الدراسة،

ومن أبرزها:

1. كان لموضوع الجهاد في سبيل الله حضور بارز في تفسير الظلال.
2. كان لسيد قطب نظرة خاصة متميزة لموضوع الجهاد في سبيل الله.
3. حظي الجهاد في سبيل الله بمكانة وأهمية خاصة عند سيد قطب، حيث كاد أن يجعله ركناً سادساً من أركان الإسلام.
4. يتميز الجهاد في سبيل الله بعدة خصائص تميزه عن الحروب التي تمارسها البشرية.
5. شرع الجهاد في سبيل الله لتحقيق مقاصد وأهداف سامية.

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً، وأرسله بدينٍ عالميٍّ شامل متكامل، وأنزل القرآن عليه معجزة خالدة إلى يوم الدين، فجاء الإسلام ديناً يعالج جميع مناحي الحياة، وخلص الناس من العبوديات جميعاً، وناداهم لعبادة رب العالمين، وحرّر الناس من رق الأنظمة التي تستعبد الناس وتستخفهم وتستهويهم على جميع أشكالها، ودعاهم لإخلاص العبادة لله رب العالمين، فوقف كثير من صناديد الكفر وأنظمة الاستعباد في وجه هذه الدعوة التي داست على أحلام إبليس وملئه، فأرصدوا لمحاربتها المال والرجال، وأجلبوا على المسلمين وديارهم بخيلهم ورجلهم، وساموهم ألوان العذاب.

فشرع الله للمسلمين ما يدفعون به الأذى عن أنفسهم، شرع لهم ما يوفر لهم الأمن والاستقرار في ديارهم، شرع لهم ما يتخلصون به من الرق، شرع لهم ما يجعلهم يعبدون الله من غير خوف ولا وجل، شرع لهم بناء قوة تحميهم وتدفع عنهم، شرع لهم ما يلقون به المهابة في قلوب أعدائهم، شرع لهم شعيرة الجهاد.

وحظيت هذه الشعيرة باهتمام كبير عند المسلمين، وارتبط عز الإسلام ومجده بالجهاد وقصص المجاهدين، وسير المعارك والغزوات، وألّفت في ذلك الكتب والمؤلفات، وجعلها الله من الباقيات الصالحات، وأكبر المهمات، وأعلى الله قدرها، وبجل أمرها في كتابه الكريم، وجعلها نزوة سنام الإسلام العظيم.

فأعز الله الإسلام وأهله، وأعلى شأنه بين الأمم، وظل الأمر على ذلك حتى خبت جذوة الجهاد، وخفت نور الشريعة من قلوب العباد، وتفرق الناس أحاداً، وتقطعت أوصال البلاد، وعاد الإسلام غريباً كما بدأ، وتشتتت الآراء، واختلقت القلوب، وحاد الناس في طريق عزهم المفقود.

فقام سوق الدعوة إلى الله، وتسابق الدعاة والمصلحون والعلماء والأئمة في العمل بهذا المتجر الراجح، وإيقاظ شعلة الدين في قلوب الأمة، على تفاوت بينهم في العلم، ولأنها أمة باقية ضمن الله لهذا الدين على رأس كل مائة عام من يجدد له أمره وشأنه، وامتألت صفحات الدعوة بأسماء كثيرة وأيدٍ بيضاء، كان لكل واحد منهم جهوده واجتهاداته الخاصة التي تأخذ طابعاً خاصاً، نظراً لاختلاف المشارب وتعددتها، واختلاف القدرات الذهنية من شخص لآخر، وتأثير البيئة، والظروف المحيطة، وغيرها.

فكان لكل واحد منهم طابع خاص يميّزه عن غيره، واجتهادات خاصة تتبع من تلك التأثيرات، ولكل واحد منهم مجالات برز فيها، وتميّز بها عن غيره، وآراء جذبت نظر الباحثين، واحتلت مساحات من كتابات الناقدين، وكثر فيها الأخذ والرد، ولعل من أبرز هؤلاء في العصر الحديث: سيد قطب -رحمه الله-، حيث استمد كثير من العاملين في حقل الدعوة آراءهم من فكر سيد -رحمه الله-، وتأثر به كثير من الشباب وجماعات العمل الإسلامي، وانتشرت مقولاته ملء الفؤاد والبصر، يصدح بها الخطباء على المنابر، ويتغنى بها الأدباء على الدفاتر، بل كان استشهاد سيد ثمناً للثبات على مبادئه وأفكاره.

وبرقت في كتاباته كثير من العناوين التي أثارت نقاشات واسعة في سماء الفكر الإسلامي، لعل منها: الحاكمية، والجاهلية، وغيرها. حيث تمت الكتابة فيها بشكل واسع، وأشبع بحثاً ودراسة، إلا أن بعض الكتابات تبقى رهناً لبعض المؤثرات الخارجة عن الموضوعية في حمل كلام سيد على معناه الحقيقي، أو تأويله وتحميله ما لا يحتمل.

وبقيت بعض العناوين التي لها تأثير واقعي على سير العمل الإسلامي، أو في صياغة العقلية الإسلامية غير مطروحة للبحث بالشكل الذي أخذته العناوين الأخرى عند سيد، مثل: الجهاد في فكر سيد -رحمه الله-، وسأقوم -بإذن الله- بجمع ما يتعلق بالموضوع من تفسيره خاصة، وحملها على معناها ضمن سياقها الحقيقي. والله أسأل أن يكتب لنا السداد والتوفيق والمثوبة، ويُعظم لنا الأجر.

الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع:

1 . تعدد الآراء، واختلاف الأفهام في تحديد معالم الجهاد في سبيل الله، وصياغة مفهوم يتوافق مع الشرع من غير تأثير العوامل الداخلية والخارجية أو ضغوطات الواقع.

2 . ما لسيد رحمه الله من مكانة كبيرة يُعتد بها في الفكر الإسلامي، مما يجعل الإبانة عن آرائه في هذا المجال في غاية الأهمية.

3 . الكثير من الدعاوى والشبهات التي أثّرت حول سيد -رحمه الله- في تبنيه لآراء يرى البعض أنها شاذة، أو ينازع البعض في أنها آراء لسيد، وفي البحث فض للنزاع، واحتكام للعلمية والموضوعية.

4 . المكانة التي يتمتع بها تفسيره (في ظلال القرآن) من بين كتبه خاصة، وبين الكتب الإسلامية بشكل عام، الذي جعله يتصدر رفوف المكتبة الإسلامية عقوداً إلى وقتنا الحاضر، ويحظى باهتمام الباحثين والدارسين على شتى اهتماماتهم.

الدراسات السابقة:

لم أعر -حسب بحثي القاصر- على كتاب مستقل في هذا الموضوع، حيث قمت بالبحث إلكترونياً على الشبكة العنكبوتية فلم أجد سوى مقالات تقتطف شيئاً يسيراً من كلام سيد قطب في هذا المجال، وكذلك بعد توفر البحث الإلكتروني الذي عملته الجامعات لخدمة البحث في الرسائل الجامعية قمت بالبحث في أرشيف أهم الجامعات في الوطن العربي فلم أجد أحداً أفرد هذا الموضوع بدراسة خاصة، ولكن أجريت العديد من الدراسات المتنوعة على موضوعات مختلفة تطرق لها سيد في ظلاله منها:

1. في ظلال القرآن "دراسة وتقويم"، للدكتور صلاح الخالدي، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التفسير، عام 1984م. جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض. قسمت الرسالة إلى ثلاثة أبواب رئيسية: مدخل إلى ظلال القرآن، منهج سيد قطب في التفسير، طريقة سيد

قطب في التفسير، الضلال في الميزان. إلا أن رسالته لم تفرد مساحة خاصة للحديث عن فكر سيد قطب في موضوع الجهاد.

2. مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب، نصير زرواق، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، حيث جمع فيها الباحث كل ما يتعلق بموضوع المقاصد الشرعية عند سيد قطب، إلا أن الباحث اقتصر عمله -كما قال- على الجانب الفني الخالص المتعلق بالتقسيم والتبويب.

3. فقه الجهاد "دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة"، للدكتور يوسف القرضاوي، وقد توقف القرضاوي في هذا الكتاب عند بعض آراء سيد قطب في الجهاد.

4. منهج سيد قطب في العقيدة، ماجد شبالة، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه، جامعة صنعاء، عام 2009م، حيث قسم الباحث الرسالة إلى أربعة أبواب: عصره وحياته، ومنهجه في تقرير مسائل الإيمان والعقيدة، ومنهجه في التوحيد، ومنهجه في النبوات والمعاد، إلا أنه لم يتطرق إلى موضوع الجهاد في سبيل الله.

وقد تميزت هذه الدراسة عن سابقتها من الدراسات بإفرادها موضوع الجهاد بالدراسة، والإحاطة به من جميع جوانبه.

مشكلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة للإجابة على التساؤلات الآتية:

1. هل كان لسيد قطب تصور خاص لموضوع الجهاد في سبيل الله؟
2. ما مدى التوافق بين آراء سيد قطب وعلماء المسلمين المتقدمين؟
3. هل كان لسيد قطب آراء شاذة خالف بها جمهور العلماء في هذا الموضوع؟
4. ما أهمية الجهاد في سبيل الله على مستوى الفرد والجماعة في نظر سيد قطب؟
5. ما المقاصد التي شرع الجهاد لتحقيقها في فكر سيد قطب؟

أهمية الدراسة:

1. يُعد موضوع هذه الدراسة من الموضوعات التي تلامس واقع الأمة الإسلامية، فهو بحث في قضايا تعاشها الأمة كل يوم، وتستجد فيها المسائل، ويحتاج إلى معرفتها العالم والجاهل.
2. يسعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى تجلية الأمور غير الواضحة بصورة علمية دقيقة، حرصاً على بيان الحق في زمن الفتن واختلاط الحق بالباطل.
3. الإجابة عن كثير من التساؤلات التي أثيرت حول سيد -رحمه الله- والتي كان للناس فيها أكثر من قول، وبيان الحق في ذلك، ووضع كثير من التُّهم التي أُصقت بالرجل على ميزان العلمية والموضوعية.

منهج البحث:

اتبعت في بحثي هذا المنهج الاستقرائي والتحليلي، من خلال الخطوات الآتية:

1. استقراء جميع آراء سيد في تفسيره لآيات الجهاد، وما يتعلق بذات الموضوع من تفسير الظلال.
2. تصنيف أقواله حسب الموضوعات، وتوزيعها على الأبواب الفرعية، والخروج باختيارات سيد قطب في هذا الموضوع بشكل واضح، متناغم مع السياق من غير تحميله مالا يحتمل.
3. إن كان هناك رأي يراه الباحث مجانباً للصواب يبين ذلك مع إيراد الأدلة، ومن قال بذلك من العلماء.
4. إن كان هناك كلام تم تحميله مالا يحتمل من كلام سيد في ذات الموضوع، أو تم إخراجه من سياقه الموضوعي ينبه عليه الباحث، ويبين الحق بإذن الله.
5. أي معلومة أو كلام غير موثق في الحاشية فهو من كلام الباحث.

خطة الدراسة:

تتكون هذه الدراسة من مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة تتضمن أهم نتائج البحث.

الفصل الأول: تعريف بسيد قطب ومكانته العلمية

المبحث الأول: تعريف عام بسيد قطب

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والفكرية لسيد قطب

المبحث الثالث: تعريف عام بتفسير الظلال ومنهج سيد قطب في التفسير

الفصل الثاني: أهمية الجهاد ومقاصده وخصائصه عند سيد قطب

المبحث الأول: أهمية الجهاد عند سيد قطب

المبحث الثاني: مقاصد الجهاد عند سيد قطب

المبحث الثالث: خصائص الجهاد عند سيد قطب

الفصل الثالث: خصائص تفسير آيات الجهاد في الظلال

المبحث الأول: ربط الموضوع بالعقيدة

المبحث الثاني: الوضوح والصرامة

المبحث الثالث: الجدية في الطرح

المبحث الرابع: معايشة وقت التنزيل

المبحث الخامس: الثقة المطلقة بالنص والتسليم بدلالته

المبحث السادس: بروز الجانب التربوي

المبحث السابع: نقض الأفكار المجانبة للصواب ورد الشبهات

المبحث الثامن: ربط النصوص بالواقع المعاصر

الفصل الرابع: العمق القرآني لشعيرة الجهاد عند سيد قطب

المبحث الأول: السور القرآنية المحورية في الفكر الجهادي عند سيد قطب

المبحث الثاني: علاقة الجهاد في سبيل الله بشعائر الدين الأخرى عند سيد قطب

المبحث الثالث: مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب

المبحث الرابع: نماذج جهادية قرآنية في تفسير الظلال

الفصل الخامس: معالجة سيد قطب للشبهات المثارة حول الجهاد

المبحث الأول: شبهة أن الجهاد وسيلة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام

المبحث الثاني: شبهة تعارض الجهاد مع سماحة الإسلام

المبحث الثالث: شبهة أن الجهاد حالة طارئة

المبحث الرابع: شبهة أن الجهاد مقتبس من الحضارات السابقة

المبحث الخامس: شبهة قصر الجهاد على أحد أفراد (جهاد الدفع)

المبحث السادس: شبهة انتصار الباطل على الحق في بعض الحالات

المبحث السابع: شبهة أن الجهاد وسيلة لاسترقاق الأسرى وسبي النساء

المبحث الثامن: شبهات حول دور المرأة في الجهاد

المبحث التاسع: شبهات حول المرحلية في الجهاد عند سيد قطب

ثم أنهى هذه الدراسة بخاتمة أوجز فيها الحديث عن أهم النتائج التي توصل إليها، ثم أورد الباحث قائمة بالمصادر والمراجع.

وبعد، فهذا عمل متواضع، والله أسأل أن يجعله في ميزان حسناتنا، ويغفر لنا تقصيرنا في ديننا، وأن يستخدمنا في خدمة دينه وشريعته.

الفصل الأول

سيد قطب ومكانته العلمية

المبحث الأول: تعريف عام بسيد قطب

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والفكرية لسيد قطب

المبحث الثالث: تعريف عام بتفسير الظلال ومنهج سيد قطب في التفسير

الفصل الأول

سيد قطب ومكانته العلمية

يحتوي هذا الفصل على تعريف بشخصية سيد قطب -رحمه الله-، وأهم الجوانب الحياتية التي مرَّ بها، وأهم إنجازاته العلمية والدعوية، بالإضافة إلى الحديث عن كتابه (في ظلال القرآن) -موضوع الدراسة- أكبر مشاريعه العلمية وأشملها، والظروف التي مرَّ بها خلال تأليفه، والمراحل الفكرية التي تدرَّج فيها سيد حتى استشهاده.

المبحث الأول

تعريف عام بسيد قطب

ولد سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي يوم الثلاثاء (9 / 10 / 1906م)، في قرية (موشا) إحدى قرى محافظة أسيوط. عاش طفولته في قريته، وتلقى فيها دراسته الابتدائية. حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة، وظل سيد بعد إنهاء دراسته الأولية في القرية مدة عامين، وذلك بسبب ثورة (1919م) وانقطاع المواصلات واضطراب الأحوال. ثم سافر إلى القاهرة لإتمام دراسته، حيث انضم إلى مدرسة عبد العزيز الأولية، ثم درس سنتين بتجهيزية العلوم تمهيداً لالتحاقه بكلية دار العلوم التي تخرج منها سنة (1933م) حاصلاً على البكالوريوس في الآداب، مع دبلوم في التربية تخصص اللغة العربية، وعمل عقب تخرجه من دار العلوم مدرساً في مدارس وزارة المعارف من سنة (1933م إلى سنة 1939م)، ثم ترك التدريس ليعمل موظفاً في وزارة المعارف إلى أن أصبح مفتشاً بالتعليم الابتدائي عام (1944م)، ثم في الإدارة العامة للثقافة في العام التالي¹.

حصل سيد على بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام (1948م) لدراسة التربية وأصول المناهج، وكان سيد يكتب المقالات المختلفة والمتنوعة عن طبيعة الحياة هناك، وينشرها في الجرائد

¹ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. دار القلم. دمشق. ط2. 1994م. ص 25 _ 32. عزام، عبد الله: عملاق الفكر الإسلامي. مركز شهيد عزام الإسلامي. بيشاور. ط1. ص 6 _ 14. حسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. دار الجبهة. 1429 هجرية. ص 6 _ 9. الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد. دار القلم. دمشق. ط1. 2000م. ص 45 _ 95. أبو زيد، وصفي عاشور: في ظلال سيد قطب. صوت القلم العربي. مصر. ط1. 2009م. ص 15 _ 24.

المصرية، ومنها سلسلة من المقالات بعنوان: (أمريكا التي رأيت)، يذكر فيها الكثير من الحقائق التي عايشها عن الحياة الأمريكية في مختلف نواحيها وتفصيلها. ويرى الدكتور صلاح الخالدي وغيره من الباحثين¹ أن سفره إلى أمريكا كان تسفيراً وأن الأمر ليس بعيداً عن تصميم وتخطيط، تعاون فيه القصر مع الاستخبارات الأجنبية وبخاصة الأمريكية، لعل التسفير يحدث تحولاً لمسار سيد بعيداً عن الإسلام والفكر الإسلامي. ثم في عام (1950م) عاد سيد قطب من أمريكا، وكانت الوجهة قد تحددت نهائياً، وأصبحت الخطة مرسومة للعمل في الصف الإسلامي².

وبعد نجاح الثورة -والتي كان سيد قطب داعياً لها متحمساً لها أشد تحمس- لم تستقر الأوضاع طويلاً حتى نشب خلاف بين رجال الثورة وجماعة الإخوان المسلمين، حيث حاول سيد أن يوفق بين الطرفين إلا أن محاولته باءت بالفشل، ومنذ ذلك الحين وعلاقته برجال الثورة تزداد سوءاً، وكانت هذه الأحداث في عام (1953م). وفي عام (1954م) حدث الصدام الكبير بين الثورة والإخوان المسلمين وذلك بسبب اتفاقية الجلاء في 27 يوليو، وهجوم الإخوان على هذه الاتفاقية، وسبق ذلك قرار حل جماعة الإخوان بعد أزمة مارس من السنة نفسها³.

وبعد هذه الأحداث المتوالية تم سجن سيد قطب مع آخرين، حيث تم استهداف سيد لمكانته الفكرية، وقدرته على التأثير في الجماهير نظراً لقدراته في الكتابة والخطابة، وتم تشكيل محكمة في (13 تموز 1955م) لمحاكمته ومن معه، وحكم عليه خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وتم نقله إلى سجن ليمان طره لقضاء فترة الحكم، حيث ساءت حالته الصحية هناك فتم نقله إلى المشفى التابع للسجن حيث قضى فيه عشر سنوات حتى تم الإفراج عنه عام (1964م) بواسطة رئيس الوزراء العراقي عبد السلام عارف⁴.

وما هي إلا عدة شهور قضاها سيد خارج السجن حتى أعيد اعتقاله في (9 أغسطس 1965م)، وكانت هذه المرة التهمة قيادة التنظيم الجديد، ومحاولة قلب نظام الحكم بالقوة، فشكلت

¹ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. ص 191_192. زرواق، نصير: مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب. دار السلام. القاهرة. ط1. 2009م. ص 35.

² انظر: زرواق، نصير: مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب. ص 35. عزام، عبد الله: عملاق الفكر الإسلامي. ص 51.

³ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفسر الرائد. ص 154_167.

⁴ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. ص 345_367.

محكمة جديدة حكمت بالإعدام على سيد قطب واثنين من رفاقه هما: (محمد هوش، وعبد الفتاح إسماعيل) وذلك في (22 أغسطس 1966م)، وفي سحر يوم (29 أغسطس 1966م) تم تنفيذ الحكم فعلياً بالمتهمين، وفاضت روح الشهداء الطاهرة إلى بارئها، وخاب وخسر كل جبار عنيد¹.

¹ انظر: المرجع السابق. ص 441_ 471. وحسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. ص 8_ 10.

المبحث الثاني

الحياة الأدبية والفكرية لسيد قطب

المطلب الأول: جوانب الحياة الأدبية والفكرية عند سيد قطب:

كان سيد قطب ذو اهتمامات أدبية وفكرية منذ الصغر، فطبيعة البيئة التي عاشها في قريته، وطبيعة أسرته واهتمامات والديه، بالإضافة إلى الظروف والأحوال السياسية التي كانت تخيم على البلاد في تلك الفترة، كل ذلك أسهم في صقل شخصية سيد في الاتجاهين الفكري والأدبي، ثم بعد انتقاله إلى القاهرة، واستقراره عند خاله الأزهرى الصحفي، وتواصله مع العقاد تمكن سيد من بناء صرح ومكانة في عالم الأدب والنقد، وتمكن من بناء علاقات مع عدة أدباء منهم: طه حسين، وأحمد حسن الزيات، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي، ومحمود تيمور، ونجيب محفوظ وغيرهم. ولكن علاقته المميزة كانت مع أستاذه عباس محمود العقاد، وهو الذي أثر على تفكير سيد قطب الأدبي والنقدي والحزبي، وقد استمر تلميذاً مخلصاً، وعضواً فعالاً في مدرسته الأدبية والفكرية فترة ليست يسيرة إلى أن صار يبتعد عن مدرسته لأسباب أدبية وفكرية وعلمية، حيث خرج منها بعد منتصف الأربعينيات ليكوّن له مدرسة خاصة في الأدب والنقد والفكر والحياة. إلا أنه لم يكتب لها الاستمرار، لأنه تخلى عنها نظراً لتغير اهتماماته¹.

وكان بين سيد قطب المنافع عن العقاد من جهة، وأنصار ومحبي ورواد مدرسة الأستاذ مصطفى الرافعي من جهة أخرى مناكفات ومعارضات شديدة، من بينهم أدباء ومفكرين كبار أمثال: علي الطنطاوي والشيخ محمود شاكر. و"كان سيد متقدماً في فن المقالة، في طليعة من برزوا في هذا الفن، ولو جمعت مقالاته من الصحف والمجلات المختلفة على مدار ما يزيد عن الثلاثين عاماً لبلغت عدة مجلدات ضخمة"². كما "كان له علاقة وثيقة مع الصحف والمجلات، فقد بدأ بنشر نتاجه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وقد نشر أولى مقالاته في صحيفة (البلاغ)، و(الحياة الجديدة)، و(الأسبوع)، و(الأهرام)، و(الجهاد). وكان سيد قطب غزير الإنتاج، يكتب المقالات

¹ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن. دار عمار. عمان. ط2. 2000م. ص23.
² الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد. ص101.

الأدبية والنقدية والتربوية والاجتماعية والسياسية. ففي المجلات كتب في (الكاتب المصري)، و(الكتاب)، و(الوادي)، و(الشؤون الاجتماعية)، و(الأديب)، و(الرسالة)، و(الثقافة)، و(دار العلوم) وغيرها. وقد أشرف على مجلتي (الفكر الجديد)، و(العالم العربي)، كما أشرف على مجلة (الإخوان) التي لاحقتها السلطات وفرضت عليها الرقابة دون غيرها من الصحف وأوقفتها عن الصدور في (5/8/1954م)¹.

وكانت كتابته في هذه الصحف متنوعة، حيث كتب في مختلف الحقول والميادين، نشر قصائد شعرية، ومقالات أدبية ونقدية، في موضوعات أدبية، أو تحليلية، أو تعليمية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو فنية، أو غير ذلك². "وقد أدت هذه الجهود الأدبية والمقالات المختلفة إلى إعجاب الآخرين به، وثنائهم عليه، وإقبالهم على نتاجه. وبعضهم كان يكتب في الصحف معجباً به وبجهوده ومقالاته وأفكاره، كما أن بعضهم كان يخالفه ويهاجمه"³.

المطلب الثاني: المراحل الفكرية التي مرَّ بها سيد قطب

الناظر في التراث الفكري والأدبي الذي خلفه سيد قطب -رحمه الله- يلحظ أنه مرَّ بثلاث مراحل:

الأولى: أعمال أدبية صرفة قبل دخوله عالم الدراسات الإسلامية بشكل عام، والفكر الإسلامي بشكل خاص، وفي هذه المرحلة كتب سيد: (مهمة الشاعر في الحياة)، و(شعر الجيل الحاضر)، وديوان شعر بعنوان: (الشاطيء المجهول)، ونقد كتاب: (مستقبل الثقافة في مصر) الذي ألفه طه حسين⁴.

الثانية: مرحلة إقبال سيد على القرآن الكريم يدرسه لدواعٍ أدبية وفنية بحتة، وكان ذلك عام (1939م)، وكان في مرحلة التكوين العلمي الشرعي، وألف بعض الكتب التي تحتاج إلى إعادة نظر في بعض جوانبها الشرعية، وكونه تتقف بثقافة عصره وقع في بعض الأخطاء التي لم يسلم منها

¹ الحومي، هيام عباس: شخصية مثيرة للجدل الفكري: <http://kenanaonline.com>.

² انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد. ص102.

³ الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. ص94.

⁴ انظر: حسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. ص11 _ 12.

من كان مثله أو حتى أفضل منه في هذه الجوانب، وقد أخرج في هذه الفترة العديد من الكتب أهمها: (التصوير الفني في القرآن)، و(الأطيان الأربعة)، و(طفل من القرية)، و(المدينة المسحورة)، و(كتب وشخصيات)، و(أشواك)، و(مشاهد القيامة في القرآن)، و(روضة الطفل)، و(القصص الديني)، و(الجديد في اللغة)، و(الجديد في المحفوظات)، و(النقد الأدبي أصوله ومناهجه)، و(العدالة الاجتماعية في الإسلام)¹.

"ونلاحظ هنا أن سيد لم يقتحم التأليف الشرعي في هذه الفترة من عام (1945م -1950م) بثقله، وذلك لإدراكه أنه في طور التكوين الشرعي، فجل مؤلفاته في هذه الفترة في الأدب، وختم هذه الفترة بكتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) ليرد على بعض المفاهيم المكذوبة على الشريعة الإسلامية في عصره بأسلوبه الفذ، ولكنه صادف بعض النقد الذي ما فتىء كونه سيفاً في يده سله على أعمال غيره من الأدباء من قبل"².

الثالثة: مرحلة الدراسات الإسلامية الفكرية. فقد " أدرك سيد أن هذه المعركة ليست أدبية، فأخذ جانب الحيطة والحذر في كتاباته التالية حتى تمكن من صقل مواهبه، وصقل قدراته، وحتى فاق أقرانه وأصبح سلاحاً فتاكاً في وجه أعداء أمته، في زمن يعد قياسيًّا وعجيباً في عالم التأليف، وهنا ابتدأت المرحلة الأخيرة عند سيد حيث أقبل على القرآن يدرسه دراسة فكرية عملية حركية، والتي كان من نتائجها: (المستقبل لهذا الدين)، و(هذا الدين)، و(السلام العالمي والإسلام)، (في ظلال القرآن)، و(معالم في الطريق)"³.

وكان سيد متأثراً في فكره الإسلامي بالتحديد بعدد من أئمة الإسلام من المتقدمين والمتأخرين من أبرزهم: ابن القيم -رحمه الله- في قضية المرحلة في الجهاد في سبيل الله، حيث كان ناقلاً لكلامه في (زاد المعاد) ومدافعاً عنه، ومتحمساً له. حيث نقله حرفياً في كتابه (معالم في الطريق) وأفرد له فصلاً بعنوان: (الجهاد في سبيل الله)⁴.

¹ انظر: حسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. ص 12_13.

² المرجع السابق. ص 14.

³ المرجع السابق. ص 11_14.

⁴ انظر: قطب، سيد: معالم في الطريق. بلا دار نشر. فلسطين. ط2. 2006. ص 57.

أما بالنسبة للمتأخرين فقد بدأ تأثره ب (أبي الأعلى المودودي) واضحاً أكثر من غيره، حيث أورد عدة نقولات عنه في عدد من كتبه، ونادى بالقضايا نفسها التي كان يدعو لها أبو الأعلى، ولعل من أبرزها موضوع (الحاكمية). بل كان المودودي هو المفكر الإسلامي المعاصر الوحيد الذي حظي من سيد بلقب (المسلم العظيم)، فسيد معترف بأستاذية المودودي مقرراً بها. حيث قال في محضر النيابة العامة في محنته عام (1965م): أن لا فرق بين ما ينادي به وما ينادي به أبو الأعلى المودودي¹.

"وكذلك نقل عن الشهيد حسن البنا -رحمه الله- كلاماً في مواضع عدة، وأبدى إعجابه وتأثره به حيث كان إعجابه يتركز -بصورة خاصة- على عبقريته في ناحيتين، أهمهما:

أولاً: البناء النفسي المتوازن لأعضاء الحركة، بإيجاد النسب المتكافئة بين العلم والروح والحركة من جهة، وبين المدارس الإسلامية التخصصية كالصوفية والسلفية والمذهبية.

ثانياً: البناء التنظيمي للجماعة، وقد كان هذا البناء هو الأول من نوعه في العالم بالنسبة للعمل الجماعي المتجسد في صورة (حزب إسلامي)².

وقد ادعت الدكتورة هيام الحومي أن سيد تأثر بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث اعتمد على فتواه في قضية تكفير الحاكم عندما يخالف شرع الله، حيث عمم الفتوى في كتابه: (معالم في الطريق)³. ورغم أنني قرأتُ المعالم أكثر من مرّة إلا أنني لم أجد فيه ذكراً لشيخ الإسلام ولا حتى ورد ذكره في غيره من كتب سيد، بل بعد البحث وجدت من انتقد على سيد عدم استفادته من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية⁴.

المبحث الثالث

تعريف عام بتفسير الظلال ومنهج سيد قطب في التفسير

المطلب الأول: تعريف عام بتفسير الظلال وقيمه العلمية:

¹ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: في ظلال القرآن في الميزان. دار عمار. عمان. ط2. 2000م. ص151 _ 152.

² الحومي، هيام عباس: شخصية مثيرة للجدل الفكري. <http://kenanaonline.com>.

³ انظر: الحومي، هيام عباس: شخصية مثيرة للجدل الفكري. مرجع سابق.

⁴ انظر: أطروحة لنيل الدكتوراة حول تأثير ابن تيمية على التنظيمات الجهادية. هاني نسيرة. نشر على موقع:

<http://www.islammaghribi.com>.

بعد صدور مجلة (المسلمون) عام (1951م) تسابق الكثيرون من المفكرين الإسلاميين للنشر فيها وكان من ضمنهم سيد قطب، حيث نشر فيها سبعة مقالات بعنوان: (في ظلال القرآن) فسّر فيها سورة الفاتحة ومقدمة سورة البقرة، ثم توقف معلناً أنه سيصدر مؤلفاً مستقلاً يقع في ثلاثين مجلداً بالعنوان نفسه، وأنه سيصدر ما يقارب الجزء كل شهرين، وأعطيت دار إحياء الكتب العربية حق النشر. وفي الفترة بين عامي (1652م) إلى (1954م) -وهو الاعتقال الأول لسيد- كان قد أصدر فيه ثمانية عشر جزءاً. وبعد الإفراج عنه تولى رئاسة تحرير صحيفة المسلمون، حيث لم يصدر فيها أي شيء من ظلاله حتى اعتقاله للمرة الثانية حيث رفعت دار إحياء الكتب دعوى ضد الحكومة تطالبها بالتعويض بعد أن منعت سيداً من الكتابة داخل السجن، حيث كان سيد متعاقداً معها على كتابة تفسير كامل للقرآن، مما اضطر الحكومة بالسماح لسيد بالكتابة داخل السجن¹.

وقد عينت الحكومة الشيخ محمد الغزالي رقيباً دينياً على ما ينشره سيد قطب من سجنه، حيث أجاز الغزالي جميع الظلال إلا تعقيباً يسيراً من سورة البروج حول ما تعرض له سيد ورفاقه من التعذيب، ثم نشره مستقلاً في كتابه (المعالم) تحت عنوان: (هذا هو الطريق)².

ثم إن سيد كان قد ألف ما يقارب الستة عشر جزءاً من ظلاله قبل سجنه الأول، وفيه أتمها إلى الثمانية عشر جزءاً، ثم بعد أن لبث في سجنه مدة طويلة اكتسب فيها من التجارب والنظرات والعظات ما جعله يعيد النظر فيما أتمه سابقاً من مشروعه الضخم -في ظلال القرآن- حيث كان قد أنهى سبعة وعشرين جزءاً فأتمها إلى الثلاثين وفق منهجه الحركي الجديد وبدأ بإعادة النظر فيما كتبه سابقاً، فوصل إلى الجزء الثالث عشر، ثم عاجله الطغاة بالإعدام، فبقي الظلال من الجزء الرابع عشر حتى السابع والعشرين دون تنقيح أو صياغة وفق منهجه الجديد³.

وتبدو القيمة العلمية للظلال من خلال تجاوز الأخطاء، ولربما الإغراقات الفقهية والنحوية والكلامية والجدلية التي كانت في التفاسير السابقة، وبناء التصور العقدي الصحيح الذي يعطي الأثر الإيجابي على الفرد والجماعة، ومن ثم تتجلى رسالة القرآن الحقيقية على هذا النحو الذي يبرز

¹ انظر: زروق، نصير: مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب. ص324. حسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. ص11_21، ص61_63. الخالدي، صلاح عبد الفتاح: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. ص544_549.

² انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن. ص46.

³ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن. ص43_46.

الأمر العملية ذات الوجود الواقعي الفعلي، والبعد عن المنهج النظري، كما يظهر بما يتحلى به الضلال من مييزات انفراد بها عن التفاسير السابقة وتفسير المعاصرين، وقواعده المنهجية التي سار عليها في التفسير.

المطلب الثاني: منهج سيد قطب في التفسير:

إن مقصد سيد قطب من تفسيره أن يعرض القرآن من جديد مع بيان ما اشتمل عليه من نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية، وأن يناهز به عن التعقيدات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية، وهذا يعتبر سبقاً في التفاسير جميعها حيث لم يخل تفسير سابق من هذه المثالب، ثم إنه يأتي بمقدمة للسورة يستعرض فيها مقاصدها ويحلل موضوعاتها، ثم يقسم السورة إلى وحدات حسب موضوعاتها، وربما قدم للوحدة بمقدمة يعطي بها فكرة إجمالية، ثم يبدأ بتفصيل التفسير، وقد جعل تفسيره حسب ترتيب المصحف¹.

ولعل من أهم القواعد المنهجية التي سار عليها سيد في تفسيره ما يلي:

أولاً: النظرة الكلية الشاملة للقرآن:

حيث يرى سيد أن القرآن الكريم كلٌّ واحدٌ لا يمكن بتر جزء منه عن الآخر، أو أخذ جزء منه وترك الآخر وإلا أحدث خللاً في التركيبة الإنسانية المقصودة من إنزال القرآن، لذلك نرى أحكامه وتشريعاته كل متناسق متناسب، فلا تتعارض أحكام الصلاة مع أحكام الطهارة، ولا تتضارب أحكام الصلاة المختلفة ببعضها، ولا تتنافر بين العبادات والتشريعات، ولا أحكام الدنيا والدين، لا يمكن التعامل معه كأجزاء وتفاريق لأن هذه النظرة خاصة من خصائص هذا الدين لها انطباعها على كل ما هو منه، لهذا نرى هذا حاضراً أيضاً في نظريته لأغراضه ومقاصده، وإلى مهمته العملية الحركية، ثم تظهر هذه النظرة من خلال بيان أن آيات القرآن الكريم لا تعارض بينها ولا تناقض، ومنها أن القرآن جاء يعالج جميع الجوانب على إطلاقها، فتراه يراعي جميع الجوانب في تشريعاته ويعتبرها في نظره².

¹ انظر: عباس، فضل حسن: المفسرون مدارسهم ومناهجهم. دار النفائس. الأردن. ط1. 2007م. ص366_368.
² انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: المنهج الحركي في ظلال القرآن. دار عمار. عمان. ط2. 2000م. ص51_57.

يقول سيد عن هذا الجانب: "وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب -كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة، ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية، ومن ثم يطلب -بحق- الوصاية التامة على الحياة البشرية، ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجمالها من صنع هذا المنهج، وتحت تصرفه وتوجيهه، وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجاً للحياة الشخصية، وللشعائر والعبادات، والأخلاق والآداب، مستمداً من كتاب الله، ومنهجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية، مستمداً من كتاب أحد آخر أو من تفكير بشري على الإطلاق! إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكاماً تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة، وأقضيتها المتطورة"¹.

وبعضها ما سماه سيد ب: (الوحدة الموضوعية) حيث نرى انسجاماً وترابطاً بين السور القرآنية، وترابطاً بين المقاطع القرآنية في السورة الواحدة، وترابطاً بين الآيات نفسها، وترابط بين كلمات الآية الواحدة، لنرى القرآن كاملاً وحدةً واحدةً مترابطةً متماسكة².

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. دار الشروق. القاهرة. ط38. 2009م. ج2. ص704_705.

² انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص27_28.

ثانياً: التأكيد على المقاصد الأساسية للقرآن:

كان سيد يؤكد باستمرار على المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، والذي يسميه أحياناً موضوع القرآن الرئيس، منها: تعريف الألوهية الحقّة، وبيان خصائصها من الربوبية والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها، والوصول إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بهذا كله لله وحده، وما وراء ذلك إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة في حياة البشر بكل جوانبها. يقول سيد وهو يتحدث عن المقصد الأساسي للقرآن الكريم: "والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة، فتعريف الألوهية الحقّة وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده، هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها، وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق - عند التأمل العميق- كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن"¹.

كما نراه أحياناً يؤكد على تلك المقاصد في بداية كل سورة على حده، حيث يقرر في مقدمتها المقاصد الأساسية لها². يقول سيد في مقدمة سورة المائدة مُعدّداً للمقاصد الأساسية لطوال السور: "ومن ثم نجد في هذه السورة -كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها- موضوعات شتى الرابطة بينها جميعاً هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد الأصل فيه أفراد الله -سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان وتلقي منهج الحياة وشريعته ونظامها وموازينها وقيمتها منه وحده بلا شريك"³.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.3. ص1753.

² انظر: المرجع السابق. ج.3. ص1753.

³ المرجع السابق. ج.2. ص825.

ثالثاً: بيان المهمة العملية الحركية للقرآن:

إن القرآن الكريم أنزل ليتحرك المسلمون به، ويكون مؤثراً على جميع الجوانب المختلفة في حياة الإنسان، وليس القرآن مختصاً بشأن معين فقط من شؤون الحياة، بل له هيمنة على جميع المجالات، وليس مقتصرأ على جانب العبادات فقط، بل له دور في صياغة جميع الجوانب، ومن هنا أبرز سيد مبدأ (التلقي للتنفيذ) حيث جاء القرآن ليعمل به المسلمون، ويكون مهيمناً على واقع الحياة بجميع جوانبه ومجالاته، وهذا ما سماه: (الواقعية الحركية)¹.

صرّح سيد في العديد من المواضع ببيان مهمة القرآن الكريم ووظيفته الحركية، منها: "وإدراك هذه الحقيقة يفيدنا فوائد كثيرة: يفيدنا أولاً في إدراك طبيعة هذا القرآن ووظيفته، فهو كائن حي متحرك، ونحن نراه في ظل هذه الوقائع يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة ويواجه حالات واقعة ... وهو العنصر الدافع المحرك الموجه في الميدان، ونحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن على هذا النحو وإلى رؤيته كائناً حياً متحركاً دافعاً. فقد بعد العهد بيننا وبين الحركة الإسلامية والحياة الإسلامية والواقع الإسلامي وانفصل القرآن في حسنا عن واقعه التاريخي الحي ولم يعد يمثل في حسنا تلك الحياة التي وقعت يوماً ما على الأرض، في تاريخ الجماعة المسلمة ولم نعد نذكر أنه كان في أثناء تلك المعركة المستمرة هو الأمر اليومي للمسلم المجند وهو التوجيه الذي يتلقاه للعمل والتنفيذ، مات القرآن في حسنا أو نام، ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حس المسلمين ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيباً منغماً نظرب له، أو نتأثر التأثير الوجداني الغامض السارب! وإما أن نقرأه أوراذاً أقصى ما تصنع في حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة، والقرآن ينشئ هذا كله. ولكن المطلوب -إلى جانب هذا كله- أن ينشئ في المسلم وعياً وحياة"².

يقول سيد مبيناً أن الحركة هي أساس فهم الدين، ومجال رحب تتفتق فيه أسرار البيان، وأنه بالعودة والرقود تُحجب أنوار التنزيل عمن يتخلف عن الحركة بهذا الدين: "إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها،

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص304_305.

² المرجع السابق. ج.1. ص304_305.

والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة، إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً، وإن سرّه لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله، والدينونة للطاغوت من دون الله¹.

رابعاً: المحافظة على جو النص القرآني:

إن الهدف الذي وضعه سيد لتفسيره، بالإضافة للقواعد المنهجية التي التزم بها فيه، جعل سيد بعيداً كل البعد عن المباحث التي تخرج القاريء عن السياق القرآني، فلم يقم نفسه في المباحث اللغوية ولا الفقهية، أو القضايا الجدلية، وكل ما يبعد المسلم عن المقصد القرآني الأسمى، وهو التلقي للتنفيذ، لإنشاء جيل قرآني فريد².

وقد صرح سيد بهذه القاعدة التي يسير عليها في تفسيره، وأبان عن معناها الحقيقي، حيث يقول: "والحياة في جو القرآن لا تعني مدارس القرآن وقراءته والاطلاع على علومه، إن هذا ليس جو القرآن الذي نعنيه، إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات، كالتي كان ينتزل فيها هذا القرآن، أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن ينشئ الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية. بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي وكل ضغطها كذلك عليه، وحر بها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهج الرباني وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة بعد الكفاح والجهاد والإصرار"³.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج4. ص1864.

² انظر: المرجع السابق. ج1. ص60_61، ج3. ص1602، ج4. ص2140_2142.

³ المرجع السابق. ج2. ص1016_1017.

خامساً: دخول عالم القرآن بدون مقررات سابقة:

إن المعنى الذي يريده سيد من دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة هو: أن ينقض الإنسان من عقله كل تصور يمكن له أن يتدخل بصورة أو أخرى في فهمه لكتاب الله، وأنه يجب عليه أن يبني مقرراته حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبت القرآن ولا يؤوله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله¹.

يقول سيد مُصرّحاً بهذه القاعدة في تعامله مع آيات القرآن الكريم: "ومنهجنا إذن أن نستلهم القرآن مباشرة -بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً- وأن نستحضر-بقدر الإمكان- الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر، والملابسات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية التي كانت البشرية تنهيه فيها وقت أن جاءها هذا الهدي، ثم التيه الذي ضلت فيه بعد أن ضلت بعد انحرافها عن الهدي الإلهي"².

سادساً: الثقة المطلقة بالنص القرآني:

كانت ثقة سيد في النص القرآني واضحة جلية من خلال نصوص تفسيره، حيث كان يتلقى إichاءاته وتوجيهاته بكل تسليم من غير تحريف ولا تأويل، ثم نرى ذلك من خلال دفاع سيد عن تعاليم الإسلام وشرائعه، وهو يجلي جماليات التشريع، كذلك وهو يبين زيف الدعاوى المناوئة للفكرة الإسلامية³. فانظر إلى الثقة التي تتبعث من كلامه بعد تفنيده لشبهة أن الجهاد إكراه للناس على الإسلام، وحديثه عن دور القوة في النظام الإسلامي، حيث يقول: "لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة، ولا بد للإسلام من جهاد، فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود ... وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام، وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع إنما يقفون به دائماً موقف المظنن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً، وعلى نظم الأرض جميعاً، وعلى مذاهب الأرض جميعاً، ولا يندعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به والذي لا

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج6. ص3978_3979.

² قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. دار الشروق. القاهرة. ط17. 2007م. ص15.

³ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص491_492، ص449، ج2. ص782_783.

يجني أحد على البشرية جناية من يحرّمها منه، ويحول بينها وبينه. فهذا هو أعدى أعداء البشرية، الذي ينبغي أن تطارده البشرية لو رشدت وعقلت"¹.

سابعاً: بيان أهمية العقيدة وأثرها:

إن أحد أهداف سيد قطب من ضلاله بيان حقيقة العقيدة الإسلامية، وأثرها على حياة الفرد والجماعة، فلم يترك سيد فرصة إلا وتحدث بها عن العقيدة، وربطها بكل شيء، حيث جعلها الركيزة الأساسية، ومنطلق المسلمون في أفعالهم جميعها، وأبرز جوانبها جلية واضحة من غير لبس مثل حقيقة الألوهية والعبودية، وجلي مسائلها في بعض الأمور المهمة، والتي وقع المسلمون بها في بعض الأخطاء².

حيث نرى سيد في عديد من المواضع يذكر أن العقيدة هي أول أمر ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في تجليته للناس، وأنه أولى أولويات العمل الإسلامي المعاصر، حيث يقول: "ولم يبدأ المنهج الإسلامي في معالجة هذه التقاليد في أول الأمر، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع. حاشا للمنهج الرباني أن يفعل! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى، عقدة العقيدة، بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره وإقامة التصور الإسلامي الصحيح، إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة، بين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق. وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق وما يكرهه، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا! أو يطيعوا أمراً ولا نهياً وما كانوا ليقنعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهي وبذلت لهم النصيحة ... لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافات، من هذه الرذائل والانحرافات، إنما بدأ من العقيدة، بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشائها لا إله إلا الله هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم سلطانه، حتى إذا خلصت نفوسهم لله وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما

¹ قطب، سيد: في ضلال القرآن. ج1. ص 295_296.

² انظر: المرجع السابق. ج3. ص1753.

يختاره الله، عندئذ بدأت التكاليف بما فيها الشعائر التعبدية-وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية¹.

ولم يجد سيد بدأً من التنبيه على أهمية العقيدة ومكانتها في كل أمر، بل جعل العقيدة موضوع القرآن الرئيس، ومحور موضوعات السور القرآنية، لأنه حق الله على العباد، وأساس الإسلام العظيم، يقول سيد وهو يبين عظيم أمر العقيدة: "فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميم، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة، إنه عهد الله مع المؤمنين، وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق، وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته. إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نودي للتكليف: "مضى عهد النوم يا خديجة"²، وكما قال له ربه: "أ □ □ يم بي □ (المزمل: ٥)"³.

ولعظيم أمر العقيدة، واعتبارها في نظر الإسلام شرع لها في النظام الإسلامي ما يحفظها، ويكفل حرية اختيارها من غير إكراه أو إجبار، حيث كان هذا المقصد من الأهداف السامية التي شرع لها الجهاد في سبيل الله، بل جعله من الأهداف النهائية المعتبرة في جميع مراحل تشريع الجهاد، يقول سيد: "وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة، بعد تفضيها واعتبارها أشد من القتل، هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام وينشئ مبدأ عظيماً يعني في حقيقته ميلاداً جديداً للإنسان على يد الإسلام. ميلاداً تنقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة، فترجح كفة العقيدة. كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء الإنسان، إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمناً عن دينه، ويؤذون مسلماً بسبب إسلامه، أولئك الذين يجرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله، وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم، وأن تقتلهم

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص973.

² لم أجده، يقول صاحب كتاب: (تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن): لم أجده بعد بحث طويل، والأقرب عندي أنه ليس بحديث.

³ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص76.

المسلمين. وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين، وليس في الآية حالة ثالثة. كالاسترقاق أو القتل. بالنسبة لأسرى المشركين"¹.

تاسعاً: الاهتمام بالبعد الواقعي للنصوص:

يرى سيد أن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، فهو صالح للعمل في كل زمان ومكان، فلم يأت للبيئة العربية في الجزيرة آنذاك فقط، إنما جاء للناس أجمعين في كل وقت وحين، حتى الآيات التي نزلت لأسباب وحوادث معينة حملوا ألفاظها على العموم، وطبقوها على الحوادث المشابهة لسبب النزول، ثم إنه يمنح الآيات بعداً واقعياً في انطباقها على الواقع المعاصر الذي نعيشه، ومعالجتها لأحداثه، وتوجيهها لأمره، وبيان ارتباط دلالات الآيات بالواقع². يقول سيد موضحاً هذا الأمر: "إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية، تنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود، ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتحرك وتشير إلى معالم الطريق وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه، وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق، وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة، وتقول لنا حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون. وسنجد عندئذ في القرآن متاعاً وحياءً وسندرك معنى قوله تعالى: أ □ حم □ خم □ □ □ سم □ □ □ (الأنفال: ٢٤)، فهي دعوة للحياة، للحياة الدائمة المتجددة، لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ"³.

ونجد سيد عند التعقيب على أحداث غزوة بدر يؤكد على أنه يمكن تسخير أحداث الغزوة في توجيه الدعوة الإسلامية المعاصرة، والعصبة المجاهدة في كل وقت وحين، رغم تباين الفئتين من الناحية المرحلية حيث يقول: "إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج6. ص3282.

² انظر: المرجع السابق. ج1. ص68، ج3. ص1494_1495، ج4. ص2508_2509.

³ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص261.

الناس وفي عالم الواقع، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية في المرحلة التي كانت فيها العصبية المسلمة الأولى يوم بدر، ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ما تزال تواجه وتوجه موقف العصبية المسلمة في كل مرحلة من مراحل الحركة، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة ما دامت السماوات والأرض، وما كانت عصبية مسلمة في هذه الأرض، تجاهد في وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية¹.

عاشراً: بيان حكمة التشريعات:

لم يشرع الله لعباده من تشريع إلا وفيه الخير والمصلحة، لأنها صادرة عن حكمة، وكل هذه الأحكام من عبادات ومعاملات وقوانين متضمنة للحكمة، ولكن آيات العبادات توقف فيها لأن المقصود منها الطاعة ومحض العبودية، ولكن السؤال عن الحكم فيها لا ينافي أو يتعارض مع الإذعان والخضوع والتسليم، من هذا المنطلق كان تعليل سيد لآيات التشريع والأحكام².

ومن الأمثلة التي أبان فيها سيد عن حكمة التشريع مسألة تحريم الخمر، فقد تكلم سيد عن علة تحريم الخمر، ومنافاتها لمقاصد الإسلام، وانطباق تلك العلة على كل مسكر فقال: "إن غيبوبة السكر بأي مسكر-تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولاً بالله في كل لحظة، مراقباً لله في كل خطوة. ثم ليكون بهذه اليقظة عاملاً إيجابياً في نماء الحياة وتجديدها، وفي صيانتها من الضعف والفساد، وفي حماية نفسه وماله وعرضه، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء. والفرد المسلم ليس متروكاً لذاته ولذاته فعليه في كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة. تكاليف لربه، وتكاليف لنفسه، وتكاليف لأهله، وتكاليف للجماعة المسلمة التي يعيش فيها، وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها. وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف. وحتى حين يستمتع بالطيبات فإن الإسلام يحتم عليه أن يكون يقظاً لهذا المتاع، فلا يصبح عبداً لشهوة أو لذة. إنما يسيطر دائماً على رغباته فيليبها تلبية المالك لأمره، وغيبوبة السكر لا تتفق في شيء مع هذا الاتجاه.

ثم إن هذه الغيبوبة في حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة في فترة من الفترات وجنوح إلى التصورات التي تثيرها النشوة أو الخمار. والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق

¹ المرجع السابق. ج.3. ص1482.

² انظر: المرجع السابق. ج.1. ص156، ج.2. ص713.

ويريد من الناس أن يروا الحقائق، وأن يواجهوها، ويعيشوا فيها، ويصرفوا حياتهم وفقها، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام، إن مواجهة الحقائق هي محك العزيمة والإرادة، أما الهروب منها إلى تصورات وأوهام فهو طريق التحلل، ووهن العزيمة، وتذابوب الإرادة. والإسلام يجعل في حسابه دائماً تربية الإرادة، وإطلاقها من قيود العادة القاهرة: الإدمان، وهذا الاعتبار كاف وحده من وجهة النظر الإسلامية لتحريم الخمر وتحريم سائر المخدرات، وهي رجس من عمل الشيطان، مفسد لحياة الإنسان¹.

ثم ذكر الخلاف في سبب تحريم الخمر هل هي لصفة ملازمة لها أم لأمر الشارع الحكيم، وأوضح أن الأصل الإتيان والامتثال والطاعة ثم يُبحث في المسألة عن العلة، حيث قال: "إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداءً على العبودية، على الطاعة لله إظهاراً للعبودية له سبحانه، فهذا هو الإسلام -بمعنى الاستسلام، وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله- بقدر ما يستطيع- فيما أمر الله به أو نهى عنه -سواء بين الله حكمته أم لم يبينها، وسواء أدركها العقل البشري أم لم يدركها- فالحكم في استحسان شريعة الله في أمر من الأمور ليس هو الإنسان! إنما الحكم هو الله. فإذا أمر الله أو نهى فقد انتهى الجدل ولزم الأمر أو النهي، فأما إذا ترك الحكم للعقل البشري فمعنى ذلك أن الناس هم المرجع الأخير في شرع الله، فأين مكان الألوهية إذن وأين مكان العبودية؟"².

الفصل الثاني

أهمية الجهاد ومقاصده وخصائصه عند سيد قطب

المبحث الأول: أهمية الجهاد عند سيد قطب

المبحث الثاني: مقاصد الجهاد عند سيد قطب

المبحث الثالث: خصائص الجهاد عند سيد قطب

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص977.

² المرجع السابق. ج2. ص978.

الفصل الثاني

أهمية الجهاد ومقاصده وخصائصه عند سيد قطب

المبحث الأول

أهمية الجهاد عند سيد قطب

أخذ موضوع الجهاد حيزاً كبيراً من فكر الإمام سيد قطب، بحيث لو جمعت المادة الخاصة بموضوع الجهاد من ضلاله وحده لكانت مجلداً يزيد أو ينقص قليلاً، حيث بالغ سيد في بيان محاسنه ومكانته في الإسلام، ودوره في استعادة مجد الأمة الإسلامية، ومغبة التقاعس عنه، والقعود عن مجاهدة العدو، فلقد بوب في كتابه (معالم في الطريق)¹ باباً خاصاً به وإن كان مستلماً من ضلاله في تقديمه لسورتي التوبة والأنفال²، ولقد بين أهميته في العديد من المواضع كلما كان السياق ذا علاقة في الموضوع أمثال تفسيره لآيات الجهاد في القرآن الكريم بشكل عام.

ولقد أمكنني الله بعونه أن أستقصي هذه المقطعات من ضلاله فيما يخص أهمية الجهاد:

1. **الجهاد وإعداد العدة من الإيمان:** حيث إنه أولاً وقبل كل شيء امتثال لأوامر الله، وطاعة وقربة من أكبر القربات وأعظمها وأجلها عند الله، ولم يحقق المسلمون على مدى التاريخ في جهادهم الشرعي نصراً إلا في قريتهم من الله، وفي قوة من إيمانهم، ولم يهزم المسلمون في تاريخهم وحتى عندما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين ظهرانيتهم إلا بثغرة وخلل في إيمانهم. يقول سيد: "ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة -وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين- حين يوجدون"³.

بل إن الإيمان لا يبلغ تمامه وكماله الذي يمكن الوصول إليه في حدود الفطرة البشرية إلا بالجهاد، يقول سيد: "حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة

¹ انظر: قطب، سيد: معالم في الطريق، بلا دار نشر، فلسطين، ط2، 2006م، ص57_85.

² انظر: قطب، سيد: في ضلال القرآن، ج3، ص1429_1469، ج3، ص1581_1564.

³ المرجع السابق، ج2، ص782.

الناس في أمر هذا الإيمان. مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان، ومجاهدتهم باليد لدفعهم من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية، وحتى يتعرض في هذه المجاهدة للابتلاء والصبر على الجهد، والصبر على الأذى، والصبر على الهزيمة، والصبر على النصر أيضاً... حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه أولاً في أثناء مجاهدته للناس، وتنتفح له في الإيمان آفاق لم تكن لتنتفح له أبداً، وهو قاعد آمن سالم، وتبين له حقائق في الناس، وفي الحياة، لم تكن لتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة... وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته، ثم تتعرف هي على حقيقة اللبانات التي تتألف منها، مدى احتمال كل لبنة، ثم مدى تماسك هذه اللبانات في ساعة الصدام"¹.

2. تربية الجماعة المسلمة التي يهيئها الله سبحانه لتتولى قيادة البشرية: فيرببها بالشدائد كما يرببها بالرخاء، ويعطيها النصر في الوقت الذي تستحقه، ويجعل أحياناً الهزيمة قدر الجماعة المسلمة فيرببها بالنصر كما يرببها بالهزيمة، فالجماعة المسلمة لا تتسلم مقاليد القوامة على البشرية حتى تنضج ويستوي سوقها، فيرببها الله بشتى الوسائل وفي جميع الأوقات حتى تكون قيماً حقيقياً على شريعة الله في الأرض، وتقيم فعلياً مملكة الله في أرضه.

يقول سيد: "لقد كان الله -سبحانه- قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنجه منذ اللحظة الأولى، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء، وكان قادراً أن ينزل الملائكة تقاتل معهم - أو بدونهم - وتدمر على المشركين، كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط، ولكن المسألة ليست هي النصر، إنما هي تربية الجماعة المسلمة، التي تعد لتتسلم قيادة البشرية، البشرية بكل ضعفها ونقصها، وبكل شهواتها ونزواتها، وبكل جاهليتها وانحرافها، وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعداداً عالياً من القادة، وأول ما تقتضيه صلابة في الخلق، وثبات على الحق، وصبر على المعاناة، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص 528_ 529.

البشرية، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف، ووسائل العلاج، ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة. وصبر على الشدة بعد الرخاء. وطعمها يومئذ لا ذع مرير"¹.

3. **لا بد من الجهاد لتأدية تكاليف العقيدة:** التي يجب أن يبذلوا في سبيلها الغالي والنفيس، فبقدر ما يدفع الإنسان من تكاليف في سبيل قيمه ومبادئه بقدر ما تكون تلك المبادئ محط احترام وتقدير في قرارة نفس الإنسان، وبقدر ما تكون قيمتها أنفس وأعلى عند صاحبها، ثم إن إصرار ذلك الشخص الذي دفع ضريبة العز في سبيل عقيدته يشكل دافعاً عند المناوئين بثتى أشكالهم للبحث عن سر تلك العقيدة التي يدفع من أجلها أصحابها أعز ما عندهم، ويثبتون عليها عند القعقات والهزاهز.

يقول سيد: "ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها"².

4. **لا بد من الجهاد ليصلب عود أصحاب الدعوات:** من أجل أن يكونوا أدعى بأن يقوموا عليها، لأن هذه الدعوة التي من أبجدياتها أنها طريق محفوف بالمخاطر لا بد أن يسلكها من تهيأ لها، وصلب عوده تحت سندان التجارب والمحن، وأكلت الدعوة من لحم كتفه، تلك الهزاهز والمحن تفتح كذلك بصيرة الداعية إلى الله على أمور ما كانت لتتفتح له في ظل الدعوة والراحة، نعم إنها هداية المحن التي تنير الطريق أمام السالكين، لذلك عندما مالت الأجيال في بني إسرائيل إلى الدعوة والراحة، وأخلدوا إلى الأرض ضرب الله عليهم التيه في

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص484.

² المرجع السابق. ج.1. ص145.

سيناء أربعين سنة من أجل أن يخرج جيل مهياً لحمل دعوة الله، يتحمل تداعيات الجهر بالدعوة والعمل لدين الله.

يقول سيد: "ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغيش عن العيون، والران عن القلوب"¹.

5. **الجهاد في سبيل الله يعلمنا العبودية الحقيقية:** يعلمنا اللجوء إلى الله وحده في جميع الأحوال والأوقات، وأن لا ناصر ولا قوي إلا هو. ويعلمنا العبودية الحقيقية وهو يراعي العبادات جميعها في حال الجهاد في سبيل الله، فنراه يعلمنا كيفية الصلاة في المعركة والتي تعرف ب (صلاة الخوف) وكذلك الدعاء، والذكر وغيرها.

يقول سيد: "وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله الانتحاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي العشوات، وتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح"².

6. **الجهاد هو الطريق لنيل موعود الله بالصلاة والرحمة والهداية:** تلك الغنيمة الربانية التي لا يحصل عليها غير الربانيين الذين يعيشون لله ويموتون في سبيل الله، أولئك الذين جردوا أنفسهم حتى من المغانم الدنيوية المباحة، يمضون وليس نصب أعينهم غير رضى الله، وفعلاً ما أحلاها من ثمرة، وما أشهاه من قطاف.

يقول سيد: "فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص145.

² المرجع السابق. ج.1. ص145.

والثمرات. التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف، إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمراً واحداً: ^أ □ □ بن بي تر □ □ (البقرة: ١٥٧)، إنه لا يعدهم هنا نصراً، ولا يعدهم هنا تمكيناً، ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية -حتى الرغبة في انتصار العقيدة- كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها¹.

وقد تعقب الدكتور فضل عباس سيداً في أن الله لم يعد المؤمنين الأولين بالنصر والتمكين في الدنيا وإنما وعدوا الجنة فقط، بأن هذا القول تعوزه الدقة والموضوعية حيث إن هناك كثيراً من النصوص القرآنية والنبوية تعد المؤمنين بالنصر والتمكين منها: قوله تعالى: ^أ □ □ بج بم (الروم: ٤٧)، وقوله تعالى: ^أ □ □ □ □ يم بي □ □ □ □ (غافر: ٥١)، وهما مكيتان باتفاق².

ولعل سيد رحمه الله- يريد من هذا إبراز الجانب التربوي، وتلمس جماليات التشريع في الجانب التربوي في الآيات التي وعدت المؤمنين بالجنة دون النصر والتمكين، دون أن يتخذ منها قاعدة مطردة في كتاب الله، والله أعلم.

7. **الجهاد نقطة ارتكاز أصيلة في العقيدة الإسلامية:** بحيث لا يمكن إلغاؤه أو استبداله بوسائل أخرى، للعلم الذي أعطانا إياه الله بطبيعة الشر المتبجح، ولعلمنا الرباني بطبيعة الطريق الإسلامي وحتميات السير فيه، فهو فعلاً نواة الحل الإسلامي وباقي الرؤى والنظريات تأخذ حكم الفرع.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 146.

² انظر: عباس، فضل حسن: المفسرون مدارسهم ومناهجهم. ص 395.

يقول سيد: "هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغيير الظروف. وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين -تحت أي ظرف من الظروف- ومن هذه النقط: الجهاد الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث، الجهاد في سبيل الله وحده، وتحت رايته وحدها"¹.

8. دور الجهاد في إبلاغ دعوة الله: حيث إن الدعوة منذ فجر التاريخ لم تسلم من العوائق التي تحول بينها وبين إبلاغ دعوة الله، فبعد أن بذل الرسل عليهم صلوات الله والدعاة الجهد الكبير باللسان، وتحفز الشر بطبيعته المتبجحة، ووضع الحواجز والعراقيل بالقوة أمام هذا الدين أن يبلغ الناس جميعهم، فكان لا بد من السنان ليحطم الحواجز والقوة المادية، وإلا كان الأمر هزلاً لو غُولج الأمر بغير جنسه.

يقول سيد: "فأما الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها -مع هذا- قدوة ممثلة في العمل، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتتهم في الدين، كما صنع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان"².

9. الجهاد أمانة: فالتخلي عنه أو استبداله أو التحايل على مفهومه وأهدافه ومقاصده خيانة، ثم إن محاولة إقرار هذا الدين في الأرض بكل وسيلة وعن طريق الجهاد ولا بد أمانة.

حيث تحدث سيد في تفسيره لآية: أ ج م □ ح م □ خ م □ □ □ س م □ □ □ □ □ (النساء: ٥٨)، عن الأمانات التي كلف الله بها الأمة الإسلامية أن يؤديها إلى الناس مبتدئاً بالأمانة الكبرى أمانة الهداية والمعرفة والطاعة والعبادة ... والتي

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 743.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 809.

تنبثق منها سائر الأمانات، قائلاً: "ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين، الشهادة له في النفس أولاً بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له. ترجمة حية في شعورها وسلوكها. حتى يرى الناس صورة من الإيمان في هذه النفس. فيقولوا ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه، وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون، والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيته بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية-فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذ هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان. وهي إحدى الأمانات.

ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض، منهجاً للبشرية جميعاً، المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة. فإقرار هذا المنهج في حياة البشر كبرى الأمانات، بعد الإيمان الذاتي. ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة، ومن ثم ف "الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة"¹ على هذا الأساس أداء لإحدى الأمانات"².

10. **الجهاد فريضة:** حيث إن الجهاد يتعين أحياناً على كل فرد مكلف في الأمة في حالات عددها الفقهاء في كتبهم، ثم إن وضع الأمة الإسلامية منذ قرون يجعلها مخاطبة بخطاب تكليف العين، وإن مصيبة واحدة أصابت الأمة لم تنفق منها، وقاصمة انحنى لها ظهر الأمة لم نقم منها كفيلة بتعين الجهاد على المسلمين.

يقول سيد: "الجهاد فريضة على المسلمين حتى لو كان عدد أعدائهم أضعاف عددهم، وأنهم منصورون بعون الله على أعدائهم، وأن الواحد منهم كفاء لعشرة من الأعداء، وكفاء لاثنتين في أضعف الحالات وفريضة الجهاد إذن لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهرة بين المؤمنين وعدوهم فحسب المؤمنين أن يعدوا ما استطاعوا من القوى، وأن

¹ أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. الرسالة العالمية. دمشق. 2009م. كتاب الجهاد. باب في الغزو مع أئمة الجور. حديث رقم: 2532. ص184. بلفظ: "ثلاث من أصل الإيمان: الكف عن قال: لا إله إلا الله، ولا تكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أممي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار". قال المحقق: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة يزيد بن أبي نضرة.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص688_689.

يثقوا بالله، وأن يثبتوا في المعركة، ويصبروا عليها والبقية على الله، ذلك أنهم يملكون قوة أخرى غير القوى المادية الظاهرة"¹.

11. **تحقيق المنهج والنظام وحمانيته:** حيث إن من مقتضيات الإيمان بدين الله هو نصرته والعمل على إقامته الذي سوف تواجهه حتماً في طريق إقامته الشر المتمترس خلف القوة المادية والذي يجب التعامل معه بالقوة، وهذا المنهج والنظام الذي يسعى المسلمون لإقامته في الأرض بحاجة إلى قوة تحميه، فطبيعته الحركية ابتداءً من ضرورياتها أن يكون عندها قوة تكسر بها حواجز الممانعة وعقبات الطغيان وتفرض به هيبتها وسلطانها، ثم لا بد من قوة تدفع به عن نفسها طبيعة الشر الذي يبدأ الخير بالعدوان، لأن الإسلام يشكل عليه خطراً يهدد وجوده الفعلي.

يقول سيد: "فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به، وليقيم في الأرض، وليحققه في حياة الناس، فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية، إنما هو منهج واقعي للحياة، ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة، والمنهج والنظام في حاجة إلى نصره، وتعزيز، وإلى جد وجهاد لتحقيقه وحمانيته بعد تحقيقه، وإلا فما وفي المؤمن بالميثاق"².

وفي سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَأَين بين من أرسل رسله ليطاعوا -بإذنه وفي حدود شرعه- في تحقيق منهج الدين، منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة، وما من رسول إلا أرسله الله ليطاع بإذن الله. فتكون طاعته طاعة لله، ولم يرسل الرسل لمجرد التأثير الوجداني، والشعائر التعبدية، فهذا وهم في فهم الدين، لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل، وهي إقامة منهج معين للحياة، في واقع الحياة ... ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان، كان دعوة وبلاغاً، ونظاماً وحكماً، وخلافة بعد ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تقوم بقوة

¹ المرجع السابق. ج.3. ص1538.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.2. ص858.

الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام، لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول، وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول، وليست هنالك صورة أخرى يقال لها: الإسلام، أو يقال لها: الدين، إلا أن تكون طاعة للرسول محققة في وضع وفي تنظيم"¹.

12. **الجهاد في سبيل الله يفتح منافذ البصيرة ويوقظها:** وتتفتح للمؤمن المجاهد مسارب الأفكار، ودرر المعاني جليلة في خضم المعامع، تلك التي كانت عصية في حال الرقود والدعة والراحة، فيفتح الله للمجاهد مدارك الفهم وهو يجاهد في سبيل الله ما لم يكن ليحصل عليها في حال قعوده وتخلفه. وكذلك الحال مع العالم العامل المجاهد فهو أكثر فهماً من عالم يجلس على أريكته دون أن يجاهد في سبيل الله. ففي الجهاد في سبيل الله تتفتق معاني الأفكار.

يقول سيد: "إن هذا القرآن لا يتدوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها، والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة، إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله، والدينونة للطاغوت من دون الله"².

يظهر لنا مما سبق أن الجهاد في سبيل الله ذو أهمية كبيرة في بنية الدين الإسلامي، وذو أهمية فيما يرمي إليه من البنية التركيبية للفرد المسلم المقصود من هذه الشعيرة، وأنه ذو عمق عقائدي يجعله حاضراً في الخطاب الإسلامي عبر الأزمنة، ولعظيم أمر الجهاد، وجليل قدره، وما له من أثر إيجابي على الفرد والجماعة همّ سيد أن يجعله ركناً سادساً من أركان هذا الدين لولا ما اقتصر عليه حديث: "بني الإسلام على خمس"³.

¹ المرجع السابق. ج2. ص695_669.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج4. ص1864، ج3، ص1734_1735.

³ البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط1. 1422هـ. كتاب الإيمان. باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس. حديث رقم: 8. ج1. ص10. مسلم، ابن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. كتاب الإيمان. باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس. رقم الحديث: 19. ج1. ص45.

المبحث الثاني

مقاصد الجهاد عند سيد قطب

إن الجهاد في سبيل الله ذو طبيعة ربانية أعطته انطباعاً يمتزج امتزاجاً بكل ما ينبثق عنه، بحيث تكتسب تشريعاته وأحكامه وجميع ما يحيط بهذه الشعيرة ذات الخصائص والميزات التي يتحلى بها الجهاد نفسه، كما أن الجهاد عينه ينطبع بخصائص الدين الإسلامي العامة كونه منبثقاً منه.

ذلك يجعل الجهاد في سبيل الله ذا أهداف ومقاصد سامية، وهو أيضاً يكتسب أهدافه ومقاصده من مقاصد الإسلام الكلية، ذلك أن الإسلام في نصوصه نزه أن تكون تشريعاته وأحكامه عبثية، فلذلك لا بد من مقاصد وأهداف للجهاد في سبيل الله منها ما هي واضحة جلية، ومنها ما هي دقيقة خفية.

وقد سعى سيد قطب -رحمه الله- في ضلاله وباقي كتبه في تلمس أهداف ومقاصد الجهاد في سبيل الله تلك الموضوعات التي أولاهما سيد اهتماماً بالغاً في كتاباته، الموضوع الأول: المقاصد. والآخر: الجهاد في سبيل الله، فما بالك بامتزاج الأمرين في المكانة.

ذلك دعا سيد -رحمه الله- أن يبرز بشكل واضح جلي مقاصد وأهداف الجهاد في سبيل الله كلما سنحت له الفرصة، بعضها كان مبعثراً ضمن السياق الذي كان يتكلم به في ضلاله، ولكن كان ولا بد لسيد أن يجمعها في سياق واحد وموضع واحد لإبراز أهميتها التي تليق بها.

وهذه أهم المقاصد الكلية العامة التي شرع من أجلها الجهاد في سبيل الله من وجهة نظر سيد قطب -رحمه الله-:

أولاً: تحقيق الأمن للمسلمين ودفع الفتنة والأذى عنهم:

قرر الإسلام ذلك المبدأ العظيم في قوله تعالى: ﴿أَأَمَّنَّا﴾ (البقرة: ١٩١)، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة

أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه¹.

ولهذا تكرر الحديث في القرآن الكريم عن الفتنة، وأهمية صرفها عن المؤمنين بكل صورها المادية والمعنوية، وشرع الجهاد كأحد وسائل منع الفتنة ودرئها، وفي هذا يقول سيد: "و غاية القتال هي ضمانه ألا يفتن الناس عن دين الله، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام، وتسلب عليهم فيه المغريات والمضلات والمفسدات، وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه، ويهابه أعداؤه، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة، ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة، والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة"².

ولا اعتبار أمر العقيدة الإسلامية ومكانتها جعل الإسلام حمايتها وصيانتها من الأهداف التي شرع لها الجهاد، يقول سيد: "إنه الجهاد للعقيدة، لحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة وإقرار رايها في الأرض بحيث يرهبا من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه"³.

بل اعتبر حماية دار الإسلام هو حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه الإسلام، لأنها الأرض التي يتخذها الإسلام منطلقاً لبعوث الدعوة الإسلامية في الأرض جميعها، حيث يقول: "و حقيقة أن حماية (دار الإسلام) حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي، وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنساني بجملته، فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين، والأرض هي مجاله الكبير"⁴.

ثانياً: تقرير حرية الدعوة الإسلامية:

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج 1. ص 294 _ 295.

² المرجع السابق. ج 1. ص 190.

³ المرجع السابق. ج 1. ص 187.

⁴ المرجع السابق. ج 4. ص 1441.

جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطويع الحياة، وأعطاهم الخيار بعد البلاغ والبيان بالإيمان أو الكفر، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً. فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعوة¹.

ومن أجل كفالة حرية الدعوة الإسلامية أكد سيد في غير موضع على ضرورة إزالة العقبات المادية والمعنوية من طريقها، وتحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله.

يقول سيد: "وإن من حق هذا المنهج أن تزال العقبات كلها من طريق إبلاغ دعوته وبيانه للناس في كل زاوية من زوايا الأرض، وأن يكون لكل من شاء -ممن بلغتهم الدعوة-، يدخل فيه فلا يضار ولا يؤذى في كل زاوية من زوايا الأرض، وأن تكون هناك القوة التي يخشاها كل من يفكر في الوقوف في وجه الدعوة -في صورة من الصور- أو مضارة من يؤمن بها- أي لون من ألوان المضارة-"².

ثالثاً: إقامة النظام الإسلامي وحمايته:

يسعى الإسلام من خلال الجهاد في سبيل الله إلى إقامة نظام إسلامي شامل يكون قيماً على البشرية جمعاء، وكفياً لتحقيق الحرية العامة وفق التصور الإسلامي. وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، إنما هنالك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 294 _ 295.

² المرجع السابق. ج 2. ص 734.

على السواء، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع، كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذاً لشريعة الله، موكلاً عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ، حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداءً، لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية في حياة البشر، فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد، فيسعى النظام الإسلامي إلى إقرار الحاكمية لله في كل شؤون الأرض، وحمائتها من أن يعتدي عليها أحد بأي صورة من الصور¹.

رابعاً: إقامة العدالة الكبرى في الأرض:

يسعى الإسلام لتمتيع البشرية بهذه العدالة في كل ميادينها، سواء كانت خاصة بالأفراد في المجتمع، أو بالجماعات في الأمة، أو بالأمم التي تعيش على هذه الأرض وتتألف منها البشرية الكبرى، فالإسلام جاء بكل تشريعاته وأحكامه يحقق العدل، ويسعى لإقراره في الأرض، ومنع الظلم والبغي والعدوان بكل صورته وألوانه، والجهاد وسيلة رئيسة معتبرة لتحقيق العدالة، لأن العدالة في كثير من الأوقات والمواطن لا تتحقق إلا بالقوة.

وهذا التكليف يقتضي من المسلمين أن يكافحوا ربوبية الطواغيت وحاكمتهم، وأن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان، ولو كان ظلم الفرد لنفسه، أو ظلم الجماعة لنفسها، أو ظلم الدولة لرعاياها، فحيثما كان على وجه هذه الأرض ظلم فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه، لا لتملك الأرض، وتستذل الرقاب، بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض، وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله².

وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم، واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم، وإقامة هذا النظام الصالح وحمائته، وتحقيق العدالة بكافة أشكالها في جميع المجالات، ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 294 _ 295، ج 2. ص 713.

² انظر: قطب، سيد: السلام العالمي والإسلام. ص 152 _ 153.

يريد أخبث أعدائه أن يوحوا للمسلمين، بل لا بد للإسلام من نظام، ولا بد للإسلام من قوة، ولا بد للإسلام من جهاد، فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود¹.

وتكاد تكون هذه المقاصد هي المقاصد العامة للجهاد في سبيل الله عند سيد قطب لأنه أكد عليها في أكثر من موطن، وكان يعيدها كلما احتاج السياق ذلك. وبالاستقراء لجميع المقاصد الأخرى التي ذكرها سيد والتمعن بها جيداً وجدتها داخلة أو مفهومة ضمناً من المقاصد العامة الرئيسة، بحيث يمكن اعتبارها مقاصد تبعية، أو نقاط تفرعية عن المقاصد الرئيسة.

¹ انظر: قطب سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 295.

المبحث الثالث

خصائص الجهاد عند سيد قطب

من خلال النظر في كلام سيد قطب -رحمه الله- في تفسيره لآيات الجهاد وما يتعلق بها نجد حديثه عن الجهاد يمتاز بعدة خصائص، منها ما نص عليه بوضوح، ومنها ما دندن حوله، وأظلت كلماته بعض معانيه.

ويمكن توضيح الخصائص التي يتصف بها الجهاد كما يرى سيد قطب في المطالب الآتية:

المطلب الأول: جهاد رباني:

وهذه صفة تشير إلى المنطلق الإلهي لهذه الشعيرة الإسلامية، حيث شرع الجهاد في كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- فليس في تشريعاته ما هو وضعي دخيل، وأحكامه تتصف بالصفاء لأنها ذات صفة إلهية. ليس لأيدي البشر لمسات في صياغتها، أو العبث بها، فسد هذه العبادة منته إلى رب الأرباب.

إنه جهاد موحى به من الله، يستمد مفهومه وأحكامه وتشريعاته من الله، وله طبيعة مجبولة بهذه الصفة، لا يتعداها إلى قوانين البشرية ولا عبث الإنسانية الضالة من غير هدى من الله. ثم إنه جهاد ذو غاية ربانية، فكل جهد لا يستصحب هذه الغاية لا يعدو كونه عبثاً أو إجراماً يمارس باسم أو هام افتعلتها عقول البشر. لذلك يجب أن نعتقد أنه جهاد مبرأ من النقص أو الهوى أو الجهل، لأنه منبثق من هذه الخصيصة. ثم نرى مدى الاختلاف بين ما تمارسه البشرية منطلقاً من بنات أفكارها أو مدعية لأسانيد محرقة لممارساتها العسكرية أو الحربية وبين جهاد رباني حقيقي.

والجهاد في سبيل الله بصورته الشرعية التي وصلتنا منزهة عن العيوب والنقائص، وإن شئ عليها الكفار والمنافقون ورموها بالنقائص، فلا تصرفاتهم بالحضارية المدنية، ولا قوانينهم الدولية، أو قوانين السلم والحرب عندهم -على ما فيها من علّات- التزموا بها. فلا يغيب عن بال مؤمن أنه بالجهاد في سبيل الله يتعبد الله، ويتقرب به إليه زلفى. وهذا هو الفارق بين من يضبط تصرفاته في الحرب تقوى الله، وبين من لا ضابط له غير الهوى والمصالح وغيرها.

وإن منهج الله لهو نعمة أنعم الله بها على البشرية، كيف لا وهو بريء من كل عيب يمكن أن يعتري البشرية، فالسعادة في هذا المنهج لا المناهج التي أفرزتها عقول البشرية مهما بلغت من المدنية والحضارة، فمنهج الله أرقى وأسمى. فالجهاد وإن قصرت عقول البشرية عن إدراك مقاصده السامية، وأهدافه الراقية، فيه السعادة للعالم أجمع، ومن تمنع قليلاً في مقاصده العامة يعلم جيداً مراعاته لمبدأ (الإنسانية) عند البشرية. فالإسلام هو المنتدب لرفع الظلم، وإقرار العدالة في العالم أجمع، فالنصراني واليهودي ينعمان بالعدل والأمن في ظل هيمنة الإسلام إذا التزموا بعهودهم وأداء واجباتهم.

لهذا صرّح سيد بهذه السمة للقتال في سبيل الله، وأنها بنية أساسية في قيام الجهاد على قواعد سليمة، حيث يقول: "ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ما لم يتم هذا كله على أساس المنهج الرباني"¹.

وربانية المنهج الإسلامي تظهر في جميع ما ينبثق عنه من شرائع وعبادات وغيرها، وكل ما هو إسلامي تظهر خصيصة الربانية في كل جزئية فيه، ومن هذه الشعائر الربانية: (الجهاد في سبيل الله) حيث إن خصيصة الربانية تظهر في جميع أحكامه، وأهدافه ومقاصده جلية للعيان. حيث إن كل حديث عن الجهاد في سبيل الله في ظلال القرآن هو حديث عن ربانيته، ثم لطالما كان يتحدث سيد عن الجهاد في سبيل الله ثم يذكر خلال السياق المنهج الإسلامي بصفته الربانية². ناهيك عن حديثه عن بعض مقاصد الجهاد أو أحكامه وتشريعاته ثم يجعلها قاعدة وبنية أساسية في المنهج الإسلامي الرباني، فعند حديثه عن مقصد الجهاد في سبيل الله في إقامة نظام إسلامي وحمائته، ودوره في حرية البشرية الحرة الحقة، عقّب على ذلك بقوله: "هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام، وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان"³.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 459.

² انظر: المرجع السابق. ج 2. ص 741، ج 2. ص 881، ج 2. ص 704.

³ المرجع السابق. ج 1. ص 294 _ 295.

حتى إن جميع الخصائص الأخرى للجهاد تدل على ربانية هذا المنهج، فالربانية هي
الخصيصة الأم التي تضم جميع الخصائص الأخرى، وتنبثق منها، فشعيرة الجهاد بما فيها من
توازن، وواقعية، وإيجابية تدل على ربانية هذا الجهاد.

المطلب الثاني: جهاد عقائدي:

وهي خصيصة تعبر عن العمق الديني في التصور للمعركة التي يخوضها المؤمنون مع
الآخرين، والتصور الفكري النابع من امتداد إسلامي بحت لا تشوبه شائبة أي وضع آخر غير
الإسلام لطبيعة المعركة وأهدافها، وهي خصيصة رأيناها في الربط الذي تنبه له سيد بين العقيدة
الإسلامية وسائر شعائر الدين¹.

يقول سيد مبيناً أن معركة الإسلام مع الآخرين هي معركة عقديّة بحتة: "إن المعركة بين
الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن
يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على
العقيدة، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً والأمة المسلمة مستمسكة
بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها، ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد
الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار
واستغلال، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور"².

إنها الدوافع الدينية البحتة لأي حركة أو جهد بشري إسلامي، والخلفية الفكرية النابعة من
هذا التصور الإسلامي لمفهوم الجهاد ودوافعه وأهدافه ومقاصده. يقول سيد موضحاً أن إقرار عقيدة
التوحيد، وحمايتها هو أحد أهم مقاصد الجهاد: "إنه الجهاد للعقيدة، لحمايتها من الحصار، وحمايتها
من الفتنة، وحماية منهجها وشريعته في الحياة، وإقرار رأيها في الأرض بحيث يرهبا من يهم
بالاعتداء عليها قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص659.

² المرجع السابق. ج1. ص354.

تعرض له أو تمنعه أو تقتنه. وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثيب عليه، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء¹.

فهو جهاد في سبيل الله لا في أي سبيل آخر، ومن أجل إقرار العبودية لله رب العالمين لا لأحد غيره، من أجل إقرار الحاكمية في هذه الأرض لله وحده، ليس لأحد غيره أدنى مزاحمة في هذا، إن الإسلام لا يعرف عارضاً يشارك الجهاد هدفه الأكبر، فهو جهاد لله وفي سبيله لا يعرف سبباً غيره، فهو لا يعرف القتال للغنيمة، أو الأرض أو أي قتال لا يبتغى به إعلاء كلمة الله، وتحقيق منهجه في الأرض، وعلى هذا يفترق الجهاد في سبيل الله عن الحروب التي يخوضها الناس لأي غاية أخرى، وعلى هذا يفترق من يموت في سبيل الله ويسمى شهيداً، ومن يموت في أي سبيل أخرى، وعندئذ يموت في سبيل ما أراد.

ويبدو مدى إبراز سيد لتجريد التوحيد في الجهاد عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَلْمِزْكُمْ لِيُحْجِمْكُمْ كَمَا لَمَّزُوا الْفِتْرَةَ﴾ (النساء: 74)، يقول سيد قطب: "فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل، لا يعرف القتال للغنيمة، ولا يعرف القتال للسيطرة، ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي، إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض، ولا للاستيلاء على السكان، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات. إنه لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة، ولتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج، وعدله المطلق بين الناس مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يقتنع بها، في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام"².

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 187.
² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 707. وينظر في موضوع جمع الشخص في نيئة لأكثر من أمر، أو ما يسمى: (التشريك في النيئة): ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد: جامع العلوم والحكم. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 7. 2001م. ص 80_85. حيث استفاض في ذكر حالاتها وكلام العلماء عليها في شرح الحديث الأول، هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية. دار البيارق. بيروت. ط 2. 1996م. ج 1. ص 273.

يتحرك لأنه ولا بد يشكل خطراً على سلطانه، والإسلام سائر في هذه الأرض ابتداءً لتعبيد الأرض لرب الأرباب، وإقامة حكم الله فيها.

يقول سيد مقررأ أن الحرب على الإسلام هدفها القضاء على العقيدة الإسلامية: "ثم يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه، وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ويخوضونها معه، إنها معركة العقيدة، فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه، وهم يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أي شيء آخر، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله"¹.

بل تبدو القيمة العقديّة حاضرة عند سيد في المعركة بتعليقه النصر على تحقيق التوحيد لله إذ يقول: "قد كتب الله على نفسه النصر لأولياته، حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم وباستكمال العدة التي في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم، فهذه سنة الله، وسنة الله لا تحابي أحداً، فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير... ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً كذلك، ولا يضيع هباء، فإن استسلامهم لله، وحملهم لرايته، وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه، من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية... وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب، تزيد في نقاء العقيدة، وتمحيص القلوب، وتطهير الصفوف وتؤهل للنصر الموعود وتنتهي بالخير والبركة"².

إن المكانة العقديّة للجهاد في سبيل الله هي من جعلت سيد يهّمُ بجعل الجهاد في سبيل الله ركناً سادساً من أركان الإسلام، لولا ما ورد في حديث: "بني الإسلام على خمس"³ من قصر أركان الإسلام على الخمسة المذكورة فيه، حيث كان مانعاً له من ذلك، حيث يقول: "يخلص لنا مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي النظام الإسلامي، وفي المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الرباني، وقد عدته الشيعة ركناً من أركان الإسلام، ولهم من قوة النصوص ومن قوة الواقع

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص908.

² المرجع السابق. ج1. ص513.

³ سبق تخريجه. ص40.

ما يفسر اتجاههم هذا، لولا ما ورد في حديث: "بني الإسلام على خمس"¹، ولكن قوة التكليف بالجهاد وأصالة هذا العنصر في خطر الحياة الإسلامية وبروز ضرورته في كل وقت وفي كل أرض -الضرورة التي تستند إلى مقتضيات فطرية لا ملابسات زمنية- كلها تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته"².

المطلب الثالث: جهاد واقعي:

وهي السمة الأولى التي تعرض لها سيد قطب -رحمه الله- بعد الحديث عن سياق الجهاد في الإسلام كما لخصها ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد³، ذلك النص الذي اعتمد عليه سيد اعتماداً كبيراً حيث نقله كاملاً في غير موضع مثل: مقدمة تفسير سورة الأنفال⁴، وفي باب الجهاد في سبيل الله من كتاب (معالم في الطريق)⁵، وغيرها من المواضع.

يقول سيد قطب وهو يتحدث عن سمات الجهاد في سبيل الله: "السمة الأولى: هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين، فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية، ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل، إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي. كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد"⁶.

وتظهر واقعية الجهاد في سبيل الله بعدة صور، منها:

الأولى: واقعية الجهاد في مواجهة الواقع بوسائل مكافئة له:

¹ سبق تخريجه ص40.
² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص746.
³ انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد. ط27. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1994م. ج3. ص143_145.
⁴ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1431_1432.
⁵ انظر: قطب، سيد: معالم في الطريق. ص57_58.
⁶ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1432.

يواجه الجهاد في سبيل الله واقعاً بشرياً بوسائل مكافئة له، فيزيل العوائق المعنوية بالبيان، والعوائق المادية بالسنان، كل ذلك في ظل مراعاة الخصائص البشرية، والسنن الكونية، في تناسق وتوافق يدلّك على الصنعة الربانية. يقول سيد مبيّناً هذا المعنى: "تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل، إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد، وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده"¹.

الثانية: واقعية الجهاد في عرض أحكامه وتشريعاته وحقائقه:

يعرض سيد أحكام الجهاد كما هي، على ثقة من أنها هي الأكثر مناسبة لطبيعة البشر والبشرية جمعاء، ثم إن منهج القرآن الكريم يراعي الظروف ويعرضها كما هي، لا يعدم غروراً، ولا يمنيهم كذباً. إن الإسلام قد راعى طبيعة النفس البشرية وهو يشرع لها التكليف، بحيث لم يغفل عن جوانب الضعف، ولم يغب عنه جوانب القوة، كل ذلك بمنهج شامل كامل متناسق، بحيث أن جميع التكاليف التي شرعها هي من المستطاع الذي بمقدور الإنسان أن يقوم به، ولم يغفل بعض الحالات والهيئات والظروف التي قد يكون بها التكليف شاقاً أو فقد بها الإنسان بعض شروط التكليف، بل قدر لهذه الأوضاع أحكاماً خاصة بها.

إن الواقعية تبدو جلية في عرض حقائق الجهاد وطبيعته عندما أبان سيد عن بعض معاني

قول الله تعالى: ﴿لَا يُلَاقِيَهُ فِي الْيَوْمِ الْقِيَامِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ سُلُوكٌ سَابِقٌ إِذْ ظَلَمُوا فَهُمْ لَنْ يَأْتِيَهُمْ خَيْرٌ لِمَا كَسَبُوا فِي سُوءِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿البقرة: ٢١٦﴾، حيث أقرّ بمشقة هذا التكليف، وكراهية الفطرة الإنسانية له، وشعورها بثقله، ومع اقراره بهذا الواقع الذي لم يصطدم معه، كان أيضاً واقعياً في معالجته، وسبل تسويغه للنفس البشرية، حيث أقر بأن من الفرائض ما هو شاق، لكن وراءه حكمة تهوّن مشقته، وتحقق به خيراً

¹ المرجع السابق. ج3. ص1432، وانظر: المرجع نفسه. ج3. ص1434، ج3. ص1509_1510.

مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير، عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها، إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً، ووراء المحبوب شراً، إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده، حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة. عندما ينشئ الإسلام هذا التصور في العقلية الإسلامية تقبل على تكاليف الله إقبال المحب المتلهف، وإن كانت شاقة كريهة المذاق لإدراكها أن كل ما شرعه الله فيه الخير والمصلحة لعباده¹.

الثالثة: واقعية الجهاد في تشريعه:

مرّ الجهاد في تشريعه بعدة مراحل حتى وصل إلى مرحلته النهائية، والتي تصورها سورة التوبة، ثم إن الشارع الحكيم في تشريعه للجهاد راعى واقع الدعوة الإسلامية آنذاك، وكان يُشرع لكل مرحلة من المراحل ما يناسبها من الأحكام، فمَنع الجهاد في المرحلة المكية لواقع الجماعة الإسلامية آنذاك، ومراعاةً للملابسات المحيطة بها، والأوضاع التي تعيشها، واعتبارات أخرى. ثم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة، وتغيّر الواقع الذي يعيشه المسلمون، والأوضاع التي لابسوها في المدينة وما حولها، سار الإسلام مع الجماعة الإسلامية في تقلباتها الحركية، ومرّ الجهاد بناء على هذا الاعتبار بعدة مراحل: فمن مرحلة الإذن بالقتال، إلى مرحلة الاقتصار على رد الاعتداء، حتى وصل في صورته النهائية إلى وجوب قتال المشركين كافة، بعد أن استقر أمر الإسلام، وقامت للإسلام دولة².

كما تظهر الواقعية في ملابسات تشريع أحكام الجهاد ذاتها ابتداءً، فمن الواقع تنبثق أحكام الجهاد في سبيل الله، حيث لا يشرع أحكاماً تنتظر التطبيق، وإنما يُنزل أحكاماً لمعالجة قضايا انبثقت من الممارسة الحقيقية لهذا الدين، حيث إن كثيراً من أحكام الجهاد ظهرت خلال سير المعارك والغزوات، كمسألة الأنفال، والقتال في الأشهر الحرم، وغيرها، حيث أنها كانت عبارة عن سوالات عن حكم حوادث استجدت خلال مجريات المعارك.

الرابعة: واقعية الجهاد في معالجة القضايا الناشئة عنه:

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 223_224.

² انظر: المرجع السابق. ج 3. ص 1437.

يعالج المنهج القرآني قضايا وقعت فعلاً خلال سير المعارك والغزوات، ولم يكن منهجاً افتراضياً بحيث يفترض مسائل وقضايا احتمالية الوقوع، بل كثيراً ما تأتي إجابة لإشكال في حادثة معينة بعد وقوعها¹.

ولعل هذه من أكثر النقاط الملامسة لواقعية الجهاد في سبيل الله، حيث أنها غنية بالأمثلة الحاضرة في فكر سيد قطب من خلال ضلاله، من أهمها:

المثال الأول: واقعية الجهاد في معالجة مسألة الأنفال:

سار سيد -رحمه الله- مع منهج القرآن في معالجة مسألة الأنفال، فلم يكن يتكلم في قضايا غير عملية أو ليس لها في الواقع أي وجود فعلي، بل يعتبر هذا نوعاً من العبث، والبعد عن منهج القرآن، فقد ابتعد عن الحديث عنها نظراً لغياب الواقع الإسلامي بعموميته، فلا جهاد، ولا مجتمع إسلامي يطبقه، فمن العبث الحديث عن الأنفال وأحكامها وتفصيلاتها الفقهية.

يقول سيد موضحاً سمة الواقعية في البعد عن الحديث عن موضوع الأنفال في الوقت الحاضر: "وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعاً إسلامياً يواجهنا اليوم أصلاً، فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها ... ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه ... إلى أفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان... من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين، لا ندخل هنا في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم حتى يحين وقتها عند ما يشاء الله وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام"².

المثال الثاني: واقعية الجهاد في مزاوله مبدأ الشورى:

نجد سيد ينبه على واقعية المنهج الإلهي وهو يستخلص الدروس والعبر من غزوة أحد في نهاية تفسيره لسورة آل عمران، ممثلاً لواقعيته بمزاوله مبدأ الشورى في أحلك الظروف في عالم

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1519.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1518_1519.

الواقع قائلاً: "وحقيقة خامسة كذلك عن واقعية المنهج الإلهي، فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره في عالم الواقع، مزاولته بالفعل، فهو لا يقدم مبادئ نظرية، ولا توجيهات مجردة، ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته. وأظهر مثال على واقعية المنهج في هذه الغزوة، هو موقفه إزاء مبدأ الشورى. لقد كان في استطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة، التي تعرضت لها -وهي بعد ناشئة ومحاطة بالأعداء من كل جانب، والعدو رابض في داخل أسوارها ذاتها- نقول كان في استطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها، لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه الصادقة، وفيها ما يشير إلى أن المدينة درع حصينة¹، ولم يستشر أصحابه، أو لم يأخذ بالرأي الذي انجلت المشورة عن رجحانه في تقدير الجماعة! أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سحنت له فرصة الرجوع، وقد خرج من بيته، فرأى أصحاب هذا الرأي نادمين أن يكونوا قد استكروه على غير ما يريد، ولكنه -وهو يقدر النتائج كلها- أنفذ الشورى. وأنفذ ما استقرت عليه، ذلك كي تجابه الجماعة المسلمة نتائج التبعية الجماعية، وتتعلم كيف تحتل تبعة الرأي، وتبعية العمل، لأن هذا في تقديره -صلى الله عليه وسلم- وفي تقدير المنهج الإسلامي الذي ينفذه، أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة، ومن تجنب الجماعة تلك التجربة المريرة. فتجنب الجماعة التجربة معناه حرمانها الخير، وحرمانها المعرفة، وحرمانها التريبة، ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى -بعد المعركة كذلك- تثبيتاً للمبدأ في مواجهة نتائج المريرة، فيكون هذا أقوى وأعمق في إقراره من ناحية، وفي إيضاح قواعد المنهج من ناحية².

المثال الثالث: واقعية الجهاد في القتال في الأشهر الحرم:

تعتبر مسألة القتال في الأشهر الحرم من القضايا الناشئة عن الجهاد في سبيل الله ومزاولته، حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية انتهى بها الأمر إلى القتال في الأشهر الحرم³.

¹ ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني: مسند الإمام أحمد. مسند جابر بن عبد الله. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد. مؤسسة الرسالة ط1. 2001م. رقم الحديث: 14787. ج23. ص99. قال المحقق: صحيح لغيره، وهذا إسناد على شرط مسلم.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص532.

³ انظر: البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط3. 2003م. ج9. ص20،99. الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد شاکر. مؤسسة الرسالة. ط1. 2000م. ج4. ص314_315. القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب

وقد جاء الإسلام مقراً للعرب في تعظيم أمرها، وتحريم القتال بها، حيث استغل الكافرون هذه الواقعة بإشاعة أن المسلمين استحلوا الشهر الحرام. فنزلت الآيات بالقول الفصل، ووصفت الواقع الحقيقي للمسألة: ﴿أَأَنْتُمْ مَن يُرِيدُ أَنْ يَمَسَّ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَمَا جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَمَا جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَمَا جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة: ٢١٧)، نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم! ولكن: ﴿أَبْرَئِنَا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُنَّ لَمَّا كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢١٧)، إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان، إنما هم المشركون. هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام. لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله. ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمة فآذوا المسلمين فيه، وفتنوه عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله الله آمناً، فلم يأخذوا بحرمة ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتال، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام. هذا هو الواقع الحقيقي للأمر، وهذا هو التوصيف الشرعي الواقعي للمسألة، لا كما يريد أعداء الله أن يلزموا المؤمنين حرمانهم لا يحترمونها، ويضعون لهم حدود هم يتجاوزونها، إن السمة الواقعية للجهاد تأخذ هذه الملابسات بعين الاعتبار، بحيث يكون لها دور في صياغة الموقف الشرعي من المسألة¹.

وفي نفس السياق يبين سيد دور السمة الواقعية في صياغة الموقف الشرعي الناشيء عن مزاولة الجماعة المسلمة لتكاليف الإسلام: "إن الإسلام منهج واقعي للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية، إنه يواجه الحياة البشرية -كما هي- بعوائقها وجوانبها وملابساتها الواقعية، يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد، يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها، ولا تترف في خيال حالم، ورؤى مجنحة لا تجدي على واقع الحياة شيئاً! هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة. يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه،

المصرية. القاهرة. ط2. 1964م. ج3. ص46_50. ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي سلامة. دار طيبة. ط2. 1999م. ج1. ص577_573.

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص225_227.

ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ... فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائفة؟ إنه إن يفعل مجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا، لأنه يريد مواجهة الواقع، لدفعه ورفع. يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال. ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة... إن الإسلام يرعى حرمان من يرعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان"¹.

إن الواقع الحقيقي أن القوة لا تواجه إلا بالقوة، وأن التغزل بالعدو في الوقت الذي يهجوك به هو عين الضعف والمهانة والمذلة، وأن التمسك بالمبادئ مع من لا مبادئ له، أو حفظ العهود مع من لا عهد له، يعتبر ضعفاً وهواناً، إن هناك فرقاً واضحاً بين كيفية التعامل مع الواقع بناءً على عقيدتنا الإسلامية وما يمليه علينا ديننا، وبين الرضى بالواقع الذي نعيشه، إن الأولى من الإعداد، والثانية من الذل والهوان.

المثال الرابع: واقعية الجهاد في معالجة قضية الرق:

تعتبر قضية الرق مسألة ناشئة عن ممارسة الجماعة المسلمة لشعيرة الجهاد في سبيل الله، حيث جاء الإسلام فوجد استرقاق الأسرى نظاماً عالمياً، بحيث لا يمكن إبطاله من جانب واحد، إذ يصبح عندها أسرى المسلمين رقيقاً، بينما ينعم أسرى الكفار بالحرية، فترجح كفة معسكر الشرك على معسكر الإيمان، وهذا يطمع الأعداء في مهاجمة المسلمين وهم مطمئنون من عواقب الهجوم². ثم إنه كان واقعياً في طريقة معالجته لهذه الظاهرة، حيث إنه اختار أن يجفف منابعه وموارده حتى ينتهي بهذا النظام كله -مع الزمن- إلى الإلغاء دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها³.

¹ انظر: المرجع السابق. ج.1. ص226_227.

² انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.2. ص622_623.

³ انظر: المرجع السابق. ج.1. ص230.

من واقع اجتماعي ودولي جاء الإسلام ووجده قائماً، حيث لم ينشئ الإسلام هذه الظاهرة، ولم يأمر بها، بل جاء الإسلام ووجده وضعاً قائماً قبل مجيئه، والإحجام عنه من طرف المسلمين وحدهم، يحدث نوعاً من اختلال التوازن بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك العالمي، لهذا جاء الإسلام وتعامل مع المسألة بناءً على هذا الواقع.

وكان واقعياً في معالجته لهذه القضية، حيث شرع من الأحكام والتشريعات ما يعالج هذه المسألة تدريجياً، ويجفف منابع القضية حتى ينتهي الأمر بها إلى التلاشي والاندثار.

وكان الإسلام واقعياً في مراعاته للحاجات الفطرية للإمام، حيث لم يغفل هذا الجانب، بل شرع الأحكام الخاصة التي تنظم أوضاع هذه الحالة، حيث إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن، فهناك حاجة فطرية أخرى لا بدَّ من إشباعها، وإلا التمسها في الفاحشة التي تفسد المجتمع، ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات، لتحريم الارتباط الزوجي بين المسلم والمشركة، فلا يبقى غير طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن وانقطاع صلتهن بأزواجهن في دار الكفر¹.

المطلب الرابع: جهاد متوازن:

نرى سمة التوازن ظاهرةً في تشريعات الجهاد وأحكامه عندما لم يغفل جوانب النفس الإنسانية فيها، وكذلك عندما كانت أحكامه في موضعها تنسجم انسجاماً توافيقاً، بحيث شرعت لكل موطن ما يناسبه من الأحكام والتشريعات التي تتناسب مع الظروف والواقع الذي يعايشه المجاهد في سبيل الله، فهو لم يقل له اذهب وصد جموع الكافرين هكذا، بل قال له قبل ذلك: أأ تهَّ (الأنفال: ٦٠)، ثم في مواطن أخرى أمر المجاهدين بأخذ الحيطة والحذر مع تنبيههم أن الموت حق وهو بيد الله، وهذا ليس معناه أن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة من غير تجهيز وإعداد، بل هي التعبئة الروحية التي تحتمي خلفها العقيدة الصلبة. لا تعارض ولا تصادم بل هو المنهج المتكامل المتوافق الذي يراعي جميع الجوانب الإنسانية والبشرية، ولا يغفل عن جوانب الروح والغيب والأمور غير

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 583_584، ج 2. ص 622_623.

المحسوسة التي تتألف وتتكاثر مع الرسالة في تأدية دورها الذي أناطه الله بها، وتنسجم انسجام التألف مع الكون لتأدية دور العبودية لله رب العالمين.

المثال الأول: التوازن في استخدام القرآن أسلوب الترغيب والترهيب، والقوة واللين في آيات الجهاد:

يظهر توازن المنهج الإسلامي في عرضه لآيات الجهاد وأحكامه باستخدام أسلوب الترغيب والترهيب، وأسلوب القوة واللين، فإن الناس طبيعتهم مختلفة، وشرع الله لكل أناس ما يناسب مداخل التلقي والاستجابة عندهم، فكما أن هناك أناساً تفتح مسامعهم ألوان البيان، فكذلك فإن هناك أناساً لا يفتح قلوبهم إلا السنان، وكذلك الحال فيمن ينصاع ويدعن بالحجة، فإن أناساً لا يخضعون إلا بالقوة. يقول سيد: "والمنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده، إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف. فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب، وتقويم الطبع، وهداية الروح -ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي- لذلك ما يكاد ينتهي السياق القرآني من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضمائر والأرواح يستجيش فيها مشاعر التقوى ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله رجاء الفلاح ويحذر عاقبة الكفر به ويصور لها مصائر الكفار في الآخرة تصويراً موحياً بالخشية والاعتبار قال تعالى: **أَأبىٰ بيهِ تجر تجر تجر تم ته ثم جم جم حم** □ □ (المائدة: ٣٥).

إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعاً، ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعاً، ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية، إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية، وكفها عن الانحراف. والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة، وليست العقوبة غاية، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة¹.

المثال الثاني: التوازن في النصوص القرآنية التي تأمر المسلم بأخذ الحيطة والحذر من العدو، والنصوص التي تأمر المسلمين بإعداد العدة ومواجهة أعداء الله مع أجل الإنسان:

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 881.

والأمانى المرفرفة هي التي تبلغهم الجنة، إنما هو تحقيق الكلمة. وتجسيم الأمنية، والجهاد الحقيقي، والصبر على المعاناة، حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعاً كائناً في دنيا الناس"¹.

المثال الخامس: التوازن القرآني في بناء الفكر الجهادي عند الفرد المسلم:

نرى الإسلام يرسم الصورة الجهادية المتوازنة الصحيحة في مخيلة وفكر الفرد المسلم ليسير وفقها من غير غلو ولا إرجاف، صورة تجمع بين الجدية والحسم يقابلها التسامح والعفو كل في موضعه ومقامه الذي يليق به. فهناك المواضع التي يلزمها الغلظة والشدة، ومواضع يناسبها السماحة واللين وخفض الجناح، ولكل مقام مقال. فكما أن الجهاد بكل تداعياته أخذ حيزاً لا بأس به من بنية الإسلام وسيره الحركي، فكذلك جانب اللين والسماحة.

يقول سيد: "وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته، إلى جانب سماحته وتغاضيه، هذه في موضعها، وتلك في موضعها. وطبيعة الموقف، وحقيقة الواقعة، هي التي تحدد هذه وتلك، ورؤية هاتين الصفحتين -على هذا النحو- كقيلة بأن تنشيء التوازن في شعور المسلم، كما تنشيء التوازن في النظام الإسلامي -السمة الأساسية الأصيلة- فأما حين يجيء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفاً وحماسة وشدة واندفاعاً فليس هذا هو الإسلام! وأما حين يجيء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد في الإسلام، كأن الإسلام في قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلماً وإغضاء وعفواً، ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامي وعن جماعة المسلمين -وليس دفاعاً عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية في الأرض بلا عقبة، وليس تأميناً لأي فرد في كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة. وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم في ظله، من اختيار عقيدته ومن لم يخترها سواء، فأما حينئذ فليس هو الإسلام"².

المطلب الخامس: جهاد عالمي:

لا يؤمن بقطر أو بحدود يجاهد ضمنها فحدوده الأرض جميعها. ذلك واضح من طبيعة الدين الإسلامي نفسه الذي جاء رحمة للعالمين، جاء للناس كافة بشيراً ونذيراً، فهذه الرسالة عالمية لم تكن لجنس من البشر أو لبقعة معينة من الأرض فحدودها المعمورة بأسرها.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 483 _ 484.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 734.

يقول سيد: "إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً، فالإسلام ليس نحلة قوم، ولا نظام وطن، ولكنه منهج إله، ونظام عالم، ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية الإنسان في الاختيار. وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار"¹. لذلك كانت هذه النقطة مرتبط مهم يعتمد عليه سيد -رحمه الله- في التأسيس لقضية (جهاد الطلب) وترسيخ أصالته في الفكر الإسلامي، وأن من ينكر هذا الجانب في الجهاد، لا ولم يفهم طبيعة الدين الإسلامي! بعالميته، وحركيته، وشموليته، وجميع خصائصه. بل كانت نظريته مجتزأة بعيداً عن فهم النصوص القرآنية بمراحليتها، بل لربما لا يعرف المتأخر من المتقدم من النصوص لكون المتأخر يمثل ما استقر عليه الإسلام في هذه القضية. حتى من يعرف المتقدم من المتأخر من النصوص ممن ينكرون هذا النوع من الجهاد في سبيل الله نراه يتكلف تأويل النصوص بما يوافق هواه وآراءه المختارة فيحمل المتأخر على المتقدم من النصوص، وهذا خطأ في التعامل مع النصوص كون النصوص المتقدمة مرحلية، والنصوص المتأخرة نهائية.

ثم إن مقاصد الجهاد ذاتها منسجمة بطبيعتها مع هذه الخصيصة حيث أنها جاءت إعلاناً عاماً لتحرير البشرية جمعاء من عبودية العباد، إلى عبودية رب العباد.

يقول سيد: "إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب! إن موضوعه هو الإنسان، نوع الإنسان، ومجاله هو الأرض، كل الأرض. إن الله -سبحانه- ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم، إن الله هو رب العالمين، وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى -في نظر الإسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر، وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون إلا لله. وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين"².

إن هذه الخصيصة هي المنطلق الفكري عند سيد قطب في تحديد نظريته للأرض والبلد والوطن، إن التصور الإسلامي الصحيح للأرض -في فكر سيد قطب رحمه الله- نابع من سيادة

¹ المرجع السابق. ج 3. ص 1443.
² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 3. ص 1434.

المنهج الذي يهيمن على تلك البقعة الجغرافية من الأرض، إن المنهج الذي يهيمن على تلك الأرض هو الذي يحدد وضعيتها في نظر المسلمين، فإذا كان المنهج الإسلامي هو الذي يحكم ويهيمن وتستظل البشرية ظلالة على تلك الأرض كانت بمثابة دار إسلام ومأوى المسلمين أجمعين، وملاذ المستضعفين في بقاع الأرض جميعها، ومنطلق البعوث الإسلامية إلى أرجاء المعمورة لتحرير الإنسان، والمنتدب الإسلامي لإزالة أي عائق يحول دون وصول الدعوة الإسلامية، وهي الوصية على الحريات في اختيار الدين بعد البلاغ.

يقول سيد مقررأ هذا الأمر: "ولابد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن: إن أ □ □ □ □ (النساء: ٧٥) التي يعدها الإسلام -في موضعها ذاك- دار حرب، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي: (مكة)، وطن المهاجرين، الذين يدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها. ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه! إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام -حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه، وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعذبوا في عقيدتهم، بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم (دار حرب) هم لا يدافعون عنها، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوانهم المسلمين منها، إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه، وأرضه التي يدفع عنها هي (دار الإسلام) التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجاً للحياة، وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي، تتضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام"¹.

إن الأرض التي لا تهيم عليها شريعة الله هي (دار حرب) لها أحكامها الخاصة، هذه النظرة هي من جعلت (مكة) قبل الفتح دار للحرب، بينما حين دخلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاتحاً واذعنت لشعائر الإسلام تحولت مباشرة إلى دار للإسلام تختلف أحكامها تماماً².

يقول سيد: "إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها القوم، ويسمونها الوطن، ويسمونها الشعب إلى آخر ما يسمون. وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كانوا

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 2. ص 708_709.
² هذا تعريف دار الحرب كما هو ظاهر من كلام سيد، إلا أنه للعلماء أقوالاً متباينة في الضابط بين اعتبار الأرض داراً للإسلام أو داراً للحرب. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. دار السلاسل. الكويت. ط2. ج 10. ص 294، ج 20. ص 201_202. هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية. دار البيارق. ج 1. ص 659_681. القرصاي، يوسف: فقه الجهاد. ط1. مكتبة وهبة. القاهرة. 2009م. ج 2. ص 879_910.

يقيمها الوثنيون. ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في خلقه، وينذر لها الأبناء كما ينذرون للآلهة القديمة! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع¹.

وفلسفة جهاد الدفع نابع من هذا التصور الإسلامي السليم، ذلك أن حماية دار الإسلام هي حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج الإسلامي، ولا يتوقف الإسلام عند هذا الحد لأنها ليست هي الهدف النهائي لحركة الجهاد الإسلامي، فليس هدفه إنشاء بقعة جغرافية يتفوق بها، ويحافظ على حدودها، لا وإنما هي بمثابة قاعدة للانطلاق، وإرساء لقواعد البعث الإسلامي التي تسعى لإقامة مملكة الله في أرضه.

يقول سيد: "أما الأرض -بذاتها- فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها. وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج ودار الإسلام ونقطة الانطلاق لتحرير الانسان.

وحقيقة أن حماية دار الإسلام حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي. وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي. إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها. ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها، وإلى النوع الإنساني بجملته. فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين، والأرض هي مجاله الكبير².

المطلب السادس: جهاد حركي:

وهي السمة الثانية التي تحدث عنها سيد -رحمه الله- في سياق حديثه عن سمات الجهاد في الإسلام على ضوء النص الذي نقله عن ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد³.

يقول سيد: "والسمة الثانية في منهج هذا الدين، هي الواقعية الحركية. فهو حركة ذات مراحل. كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية. وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة،

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 4. ص1413.

² المرجع السابق. ج 4. ص1441.

³ انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد. ج3. ص143_145.

والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد، ولا يراعون هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مراحلها، الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً، ويلبسون منهج هذا الدين لباساً مضللاً، ويحملون النصوص مالا تحتمله من المباديء والقواعد النهائية¹.

فإذا كان سيدياً لا يتصور ديناً إسلامياً بلا حركة، فكيف السبيل إلى تصور جهاد بلا حركة، الجهاد الذي أصله الجهد والبذل والقوة والعطاء، فلا يمكن تصور جهاد بلا حركة إلا في فهم المتصوفة الذين قصرُوا الجهاد على أحد أفرادها، ألا وهو: جهاد النفس، واعتمادهم على أحاديث ضعيفة لتقوية آرائهم الواهية، لقد جاء القرآن ونصوص الهدى النبوي بالإضافة إلى لفظ (الجهاد) بلفظ آخر لا يحتمل التأويل، وينكأ دعاة السليبية والسلمية ألا وهو: (القتال)، وقد تكلم سيد -رحمه الله- في غير موضع منتقداً هذه السليبية التي عندهم، وأبان عن أثرها في تخدير الأمة الإسلامية، ودورها في إسلامها واستسلامها لعدوها.

ثم إن حركة الجهاد تبارك في الفهم والعلم -كما قال أبو علي الدقاق:- "الحركة بركة"².
فدور الحركة بارز في جل شؤون الإسلام العظيم كما هو بارز في الجهاد في سبيل الله.

إن الإسلام لا يواجه الواقع بنظريات مجردة بل يسير بالنظرية مع العمل جنباً إلى جنب، بوسائل مناسبة ومكافئة للواقع الذي يعايش، وهذا لا يعني أيضاً عدم الانضباط بل يعني المواكبة الحذرة التي لها ضوابطها وحدودها، وهذا كله بحاجة إلى جهد واجتهاد، وعمل وتدبير.

وتبدو حركية الجهاد واضحة في فكر سيد من خلال تقرير أن الجهاد يقوم على خطة عامة يتحرك المسلمون من خلالها عند تفسيره لقوله تعالى: أَأَقْرِبُّكُمْ إِلَى اللَّهِ فَأَقْرِبُنِي إِلَى اللَّهِ وَمَنْ أَقْرَبَ اللَّهَ فَقَرَّبْهُ وَاسْتَجِبْ لَهُ وَأَنْصِتْ لِمَا يَنْصِتُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 3. ص1432.
² القشيري، عبد الكريم بن هوزن: الرسالة القشيرية. دار المعارف. القاهرة. تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. ج1. ص216.

ثبات في المفهوم، والأهداف، والتصور، وفي سيره فلا يمكن أن تتم صياغة مفهوم للجهاد يناسب العصر مثلاً كما يحلو للبعض أن يقدمه بثوب عصري جديد يتنافى مع مفاهيم وأهداف الجهاد الثابتة، وكما أنه هناك أهداف عريضة لا يمكن تجاوزها في أي مرحلة من مراحل الجهاد عبر الأزمنة والعصور، فكذا لا يمكن العبث به بقصره على أحد أنواعه كما يفعل البعض في ظل ضغط الواقع وضعف المسلمين والصدمة الحضارية التي حصلت لهم بسبب التقدم المادي للغرب. وما ملّ سيد -رحمه الله- من التأكيد على أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة في كل حديث عن الجهاد سواء في مفهومه، أو أهميته، أو أهدافه ومقاصده، أو في أي فرصة مناسبة للسياق¹. فعند الحديث عن مقاصد الجهاد العامة خصيصاً أكد على استمراريتها وثباتها، ففي مقصد دفع الأذى والفتنة يقول: "وما يزال الجهاد مفروضاً عليهم لرد الفتنة إن كانوا حقاً مسلمين"². وفي مقصد حرية الدعوة يقول: "وما يزال هذا الهدف قائماً، وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين"³. وفي مقصد إقامة النظام الإسلامي يقول: "وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين: أ □ □ □ □ بر □ □ بنّ (البقرة: ١٩٣)"⁴.

¹ انظر: المرجع السابق. ج 2. ص 688_689.

² المرجع السابق. ج 1. ص 294_295.

³ المرجع السابق. ج 1. ص 294_295.

⁴ المرجع السابق. ج 1. ص 294_295.

الفصل الثالث

خصائص تفسير آيات الجهاد في الظلال

المبحث الأول: ربط الموضوع بالعقيدة

المبحث الثاني: الوضوح والصراحة

المبحث الثالث: الجدية في الطرح

المبحث الرابع: معاشرة وقت التنزيل

المبحث الخامس: الثقة المطلقة بالنص والتسليم بدلالته

المبحث السادس: بروز الجانب التربوي

المبحث السابع: نقض الأفكار المجانبة للصواب ورد الشبهات

المبحث الثامن: ربط النصوص بالواقع المعاصر

الفصل الثالث

خصائص تفسير آيات الجهاد في الظلال

المستقريء لتفسير سيد -رحمه الله- لآيات الجهاد يلحظ ميزات عدة، منها ما يمكن استخلاصه بمجرد القراءة لوضوحها، ومنها ما يحتاج إلى تأمل ونظر، وهذه الميزات بعضها أعطى هذا التفسير مزية على غيره من تفاسير عصره، بل حتى كان مميزاً لها عن تفاسير المتقدمين، صحيح أنها ليست المعيار الذي أعطي به التفسير هذا الاهتمام بحيث لا توجد في غيره، ولكن هذا من ضمن ما يمكن اعتباره مميزاً فيه. فمنها ما انفرد بها، ومنها ما شارك فيها غيره، ولعل من أبرزها ما يأتي:

المبحث الأول

ربط الموضوع بالعقيدة

يهتم سيد ببيان أهمية العقيدة الإسلامية في كل الجوانب البشرية، والأهم من ذلك هو بيان ملامسة العقيدة لكل الجوانب من زاوية معينة وربطها بالعقيدة ولا بد، ومدى أثر العقيدة في الالتزام بالشرائع والأحكام، وتداعيات الحيدة عن العقيدة في كل الأمور. يقول سيد مقررراً لهذا الأمر: "وهو اطراد يوجه النظر إلى حقيقة هذا الدين، إنه وحدة لا تتجزأ تنظيماته الاجتماعية، وقواعده التشريعية، وشعائره التعبديّة، كلها منبثقة من العقيدة فيه، وكلها نابعة من التصور الكلي الذي تنشئه هذه العقيدة، وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله، وكلها تنتهي إلى غاية واحدة هي العبادة: عبادة الله الواحد، الله الذي خلق، ورزق، واستخلف الناس في هذا الملك، خلافة مشروطة بشرط: أن يؤمنوا به وحده، وأن يتجهوا بالعبادة إليه وحده، وأن يستمدوا تصورهم ونظمهم وشرائعهم منه وحده. وهذا الدرس بمجموعة الموضوعات التي يحتويها، والتعقيبات التي يتضمنها، نموذج واضح لهذا الترابط المطلق في هذا الدين"¹.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص164.

المبحث الثاني

الوضوح والصراحة

يتميز تفسير سيد قطب بلغته السهلة والميسرة، بحيث يسهل تناولها حتى للعوام غير المشتغلين بالعلم، لأن فكرة سيد هي إعادة بعث روح القرآن في الأمة بأقرب طريق، وفهم رسالة القرآن للجميع لأن الجميع مخاطب بهذا القرآن، ثم لا نجد تلك التكاليف اللغوية التي كانت في تفاسير السابقين، ولا تعقيدات علم الكلام التي نأت بالقرآن عن مقاصده الحقيقية.

أما بالنسبة للصراحة فلم يكن سيد -رحمه الله- يخجل من عرض فكرته كما هي، بحيث يعرض لأحكام القرآن وتشريعاته بكل ثقة دون خوف من أن يشنع عليه أحد كلامه وفكرته، أو أن ينتقص منها، وكان يضع يده على الجرح يشخصه جيداً دون مراعاة لهوى، أو بيئة، أو حاكم، أو فئة معينة، أو جماعة يتعارض كلامه مع مصالحها، أو أدبياتها، أو أفكارها.

يقول سيد وهو يتحدث عن دور القوة وأهميتها في الفكر الجهادي، ويعقب على ذلك بدعوة العاملين لدين الله بالوضوح والصراحة في الطرح، وعدم الخجل من أهداف الجهاد السامية، وأنها تسعى لإزالة الأنظمة والقوى المادية والسياسية، وجميع التجمعات الجاهلية التي يمكن أن تقف في وجه الدعوة الإسلامية: "وينبغي للمسلم ألا يتمم ولا يجمم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة، ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية، إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعبيد، هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون

الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتعون ويجمعون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي"¹.

إن الوضوح والصرامة ميزة رئيسة في تفسير سيد قطب، بل نجدها واضحة جلية في جميع المواضيع التي تطرق إليها، وهذه الميزة من الأسباب التي صنعت خصوماً أكثر لسيد، سواء على المستوى العام حيث يعدونها هجوماً، أو على المستوى الإسلامي حيث يعدونها تهوراً واندفاعاً، في الوقت الذي يعدها سيد أمانة ومسؤولية وواجب ديني يُسأل عنه أمام الله، ونجد معالم الصراحة والوضوح جلية على أنها مبدأ متبع، يسير عليه في جميع المواضيع التي تطرق إليها في قوله: "لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة، هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم، هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث والله يريد أن يطيبكم، هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يرفعكم، هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم"².

وتبرز ميزة الوضوح والصرامة في كلام سيد مجتمعتين وهو يتحدث عن القتال في الأشهر الحرم أو القتال عند البيت الحرام، حيث كان كلامه في غاية الصراحة من حيث الموقف، وفي غاية الوضوح حيث لم يتخرج من بيان رأيه من الذين يتخذون الحرمات والمقدسات متاريس يتسترون خلفها، ويخفون بها أعمالهم السيئة، ويزينون بها باطلهم، حيث يقول مشخصاً حقيقة الموقف بأن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان إنما هم المشركون، هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام. ولقد كفروا بالمسجد الحرام، وانتهكوا حرمة فأذوا المسلمين فيه، وفتنوه عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، فلم يأخذوا بحرمة ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.

ووضّح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات التي يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1544.

² قطب، سيد: معالم في الطريق. ص158_159.

عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة، لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي، وهم المعتدون ابتداءً، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداءً¹.

ثم يعقب على هذا الكلام بذكر حل واقعي لمثل هذه المواقف بشكل صريح وواضح بأن الإسلام يرفعى حرمات من يرفعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون المسلمين ويفتنونهم عن دينهم، وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان، وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد، ثم يضرب أمثلة لأمر هي في أصلها محرمة، لكنها في ظل واقع معين تباح أو تستثنى منها حالات، حيث إن الإسلام يحرم الغيبة ولكن لا غيبة لفاسق، فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتون بفسقه. وكذلك يحرم الجهر بالسوء من القول، ولكنه يستثنى² □ □ □ (النساء: ١٤٨)، فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول، لأنه حق، ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه².

ثم يصرح -من خلال المثال السابق- بخصيصة الصراحة والوضوح التي يجب أن تكون ميزة في المنهج الإسلامي قبل أن تكون ميزة له في تفسيره، حيث يقول: "هذا هو الإسلام صريحاً واضحاً قوياً دماغاً، لا يلف ولا يدور ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور، وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامهم، وهم يمضون في سبيل الله، لتطهير الأرض من الشر والفساد، ولا يدع ضمانهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوسواس ... هذا شر وفساد وبغي وباطل، فلا حرمة له إذن، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات،

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص 226.

² انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 227.

ليضرب من ورائها الحرمات، وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة في سلام مع ضمائرهم، وفي سلام من الله¹.

رأينا مما سبق أن الوضوح والصراحة سمة ظاهرة في تفسير سيد بشكل عام، وفي تفسيره لآيات الجهاد بشكل خاص، حيث إن الآيات أنزلت لتفهم وتطبق، وإن الغموض فيها مانع أو مؤخر عن هذا المراد. والصراحة من مستلزمات المنهج في بيان الانحرافات، والنهي عن المحظورات، لأن المراد من النهي في التنزيل الكف عن المحذور، وهذا لا يتأتى بالكتمان أبداً، كما لا يتأتى بالتلميح إلا نادراً، لتفاوت الناس في قدراتهم العقلية والذهنية، والناس إلى الصراحة والوضوح في هذا الزمان أحوج إليه من سابقهم، لضعف الوازع الديني الذي أحدثته الجاهلية الحديثة في فطرتهم، وإنه لمن المعلوم أن الكلام كلما كان أشد وضوحاً وصراحةً كان أكثر فهماً، وأكبر وقعاً في قلوب المتلقين. وذلك أدعى للعمل والتنفيذ المراد من التنزيل.

¹ المرجع السابق، ج. 1، ص 227.

المبحث الثالث

الجدية في الطرح

فقد عالج سيد في تفسيره قضايا واقعية تعاني أو تعاشها الأمة، وكان أبعد ما يكون عن القضايا الافتراضية، أو حتى القضايا الجدلية التي تذهل المسلمين عن قضيتهم الأساسية، أو حتى تشغلهم بقضايا جانبية عن لب ما يجب عليهم في ظل الواقع الذي يعايشونه.

يقول سيد في سياق حديثه عن بعض المسائل الفقهية الناشئة عن مزاوله الجهاد في سبيل الله: "والمنهج الإسلامي منهج واقعي لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل، ومن ثم لا يشتغل أصلاً بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع، إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام، هذا ليس منهج هذا الدين، هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية، حيث لا مقابل لها من الواقع أصلاً، بدلاً من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين"¹.

فموضوع الغنائم في العصر الحاضر لا يعتبر مسألة فقهية حية واقعية، لأنه ناتج عن حركة الجهاد الإسلامي الذي تمارسه الدولة المسلمة والمجتمع المسلم وهما مفقودان في العصر الحاضر، لذلك تجاوز سيد هذا الموضوع من الناحية الفقهية، لهذا نرى سيد يشخص قضية الغنائم قائلاً: "وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملة ليس واقعاً إسلامياً يواجهنا اليوم أصلاً فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها"².

وفي نفس السياق يبين سيد سبب تجنبه الحديث عن الأحكام الخاصة بالأنفال والغنائم في الوقت الحاضر: "من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين لا ندخل هنا في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم، حتى يحين وقتها عندما يشاء الله، وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام، وحسبنا في هذه

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1519.

² المرجع السابق. ج3. ص1518_1519.

الظلال أن نتبع الأصل الإيماني في السياق التاريخي الحركي، والمنهج القرآني التربوي. فهذا هو العنصر الثابت، الذي لا يتأثر بالزمن في هذا الكتاب الكريم، وكل ما عداه تبع له وقائم عليه"¹.

ثم نجده مع النص منسجماً بكل قوة، يقدم أطروحاته الفكرية من خلال النص بكل ثقة دون مdahنة، أو أي تلون تقتضيه المصلحة الشخصية، أو حتى الدعوية، وكان خطه الإسلامي واحداً متوازياً مع الباطل بحيث يستحيل التلاقي في أي نقطة ما، وكانت رؤيته إسلامية بحته لا يمزجها بأي لون آخر بحيث يعتبرها البعض حدية إلى حد ما حسب زعمه، بحيث يعتبرها قضية إسلام أو لا إسلام، قضية كفر أو إيمان، خياران لا ثالث لهما.

يقول سيد: "إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحداً منها، أو يخطط واحداً منها بواحد، كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر، إن هذا في سبيل الشيطان، سائر على خطوات الشيطان، ليس هنالك حل وسط، ولا منهج بين بين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل، هدى وضلال، إسلام وجاهلية. منهج الله أو غواية الشيطان. والله يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان. ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعبادة الشيطان لهم، تلك العداوة الواضحة البينة، التي لا ينساها إلا غافل، والغفلة لا تكون مع الإيمان"².

يظهر لنا مما سبق أن الجدية سمة بارزة في تفسير سيد قطب، وقد بدت معالمها واضحة في معالجته للقضايا الواقعية، وبعده عن جميع القضايا التي ليس لها أثر واقعي، كما ظهرت في بعده عن المسائل التي لا يبنى عليها عمل، وتركه لكل مسألة تذهل المسلمين وتشغلهم عن المقاصد الأساسية لهذا الدين. كما ظهرت في قوة طرحه الفكري، وتجريد إسلاميته، وخلوصه من أي وضع آخر.

المبحث الرابع

معايشة وقت التنزيل

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1518_1519.

² المرجع السابق. ج1. ص211.

تشعر وأنت تقرأ لسيد في تفسيره لآيات من القرآن تتحدث عن معركة معينة مثلاً، أنك تعيش تلك الأجواء التي عاشها المسلمون آنذاك بكل ظروفها، تألم لتألمهم إذ أصابهم القرح، وتفرح لفرحهم بنصر بدر، وتجوع لجوعهم وهم في الشعب، وكأن المعركة أمام ناظريك بكل حيثياتها، تنتقل مع الآيات أينما أخذتك بجوها المصاحب للملابسات التاريخية لنزول الآيات، تتغير حالتك النفسية وتتلون بالصورة التي يرسمها لك في تفسيره.

يقول سيد مصوراً أحداث معركة أحد: "والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة وصورة الاشتباكات والملابس التي أحاطت بهذه الحياة، مع استبطان السرائر والضمان، وما يدب فيها من الخواطر، وما يشترج فيها من المشاعر، حتى لكان قارئها يعيش هذه الأحداث، ويعايش الأمة التي كانت تخوضها وتتفاعل وإياها. ولو أغمض الإنسان عينيه فلربما تراءت له -كما تراءت لي- شخوص الجماعة المسلمة رائحة غادية، بسماتها الظاهرة على الوجوه، ومشاعرها المستكنة في الضمان، ومن حولها أعداؤها يتربصون بها، ويبيتون لها، ويلقون بينها بالفرية والشبهة، ويتحاقدون عليها، ويجمعون لها، ويلقونها في الميدان، وينهزمون أمامها -في أحد- ثم يكرون عليها فيوقعون بها، وكل ما يجري في المعركة من حركة وكل ما يصاحب حركاتها من انفعال باطن وسمة ظاهرة، والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس، ويبطل الفرية والشبهة، ويثبت القلوب والاقدام، ويوجه الأرواح والأفكار، ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة، ويبني التصور ويزيل عنه الغبش، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور"¹.

وفي سورة الأنفال يتحدث سيد عن دور الآيات وسياقها في أن تستحضر الأجواء ذاتها والظروف التي عاشها الجيل الأول في غزوة بدر، حيث يقول: "يمضي السياق في استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها، حيث يتجلى كيف كانت حالهم، وكيف دبر الله لهم، وكيف كان النصر كله وليد تدبير الله أصلاً... والتعبير القرآني الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهدة وحوادثه وانفعالاته وخفقاته، ليعيشوه مرة أخرى، ولكن في ضوء التوجيه القرآني، فيروا أبعاده الحقيقية التي تتجاوز

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص350.

بدرأً، والجزيرة العربية، والأرض كلها وتمتد عبر السماوات وتتناول الملاء الأعلى كما أنها تتجاوز يوم بدر، وتاريخ الجزيرة العربية، وتاريخ البشرية في الأرض، وتمتد وراء الحياة الدنيا، حيث الحساب الختامي في الآخرة والجزاء الأوفى، وحيث تشعر العصابة المسلمة بقيمتها في ميزان الله، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين"¹.

يتبين لنا من خلال النصوص السابقة اهتمام سيد في استحضار أجواء النصوص القرآنية، ومعايشتها، ودورها في إنشاء الشخصية الإسلامية، لأن الدين لن يقوم به إلا من عاش بمثل الأوضاع التي عايشها المسلمون الأوائل، وأنها سمة مطردة اتبعها سيد في تفسيره لآيات الجهاد في سبيل الله.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.3. ص1482.

المبحث الخامس

الثقة المطلقة بالنص والتسليم بدلالته

يتحدث سيد في تفسيره لآيات الجهاد بنفس مطمئنة هادئة تدل على يقين نادر، يقين من أوى إلى ركن شديد. ثم إن ورد ما يشكك أو يتعارض ظاهرياً مع دلالة نص معين فإنه يزيل هذا التعارض برصانة علمية، ومثانة واقعية قوية بحيث يخضع ما يتعارض للنص ويجعله تابعاً مع إبقاء النص هو الأساس.

ففي تفسير قوله تعالى: **أَأَنْتَ** □ □ □ □ □ □ □ □ □ **لِجُلُودِ** لِه (الفتح: ٢٨)، أشار سيد إلى ظهور الإسلام، وهيمنته على المعمورة، وانتشاره في جميع أصقاع الأرض، واستمرار ظهوره الفكري والثقافي -حتى بعد انحساره السياسي- ولهذا يقول: "فوعده الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة، وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته، بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة في جميع الأحوال"¹. حيث أبدى ثقته المتناهية في النص، وذلك بجعل الواقع السياسي الذي آل إليه المسلمون من ذل بعد عز، وانحسار بعد انتشار، إلى أن ذلك لا يتعارض والنص القرآني حيث تحقق وعد الله سابقاً، وما يزال كذلك في الوقت المعاصر من حيث هو دين قوي بذاته، يحمل من الخصائص والمقومات ما يجعله ذا طبيعة حية قوية، ويؤهله في المستقبل لأن يكون القيم على البشرية.

وكذلك في تفسير قوله تعالى: **أَأَنْتَ** □ □ □ □ □ □ □ □ □ **لِجُلُودِ** نَه (المائدة: ٦٤)، حيث تتعارض الآية الكريمة مع ظاهر حال اليهودية العالمية الآن، حيث أن ظاهرهم هو الاتفاق والتعاون والتساند، لكن سيد يسلم بتقرير النص القاطع، ويرد واقع اليهود اليوم إلى عدم وجود العصبية المؤمنة، وحيدة المسلمون عن دينهم وعقيدتهم، أما إذا عاد المسلمون إلى دينهم عودة جادة، فسيعود اليهود إلى التفرق والتعادي والتباغض. يقول سيد: "ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففي خلال ألف وثلثمائة عام، بل

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج6. ص331.

من قبل الإسلام واليهود في شحناء، وفي ذل كذلك وتشرد، ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه، مهما
تقم حولهم الأسناد، ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصابة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله¹.

يظهر لنا أن الثقة بالنص القرآني، والتسليم بدلالته ميزة اتصف بها سيد قطب في تفسيره
لآيات الجهاد وغيرها، وتدلل على صلابة عقيدته، وعلمه الراسخ بآيات الله، واليقين النادر الذي حباه
الله إياه، ومدى علمه بالواقع الذي يعيشه، ودرايته بمخططات أعداء الأمة الإسلامية.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.2. ص930.

المبحث السادس

بروز الجانب التربوي

تهذيب النفس المسلمة مقصد من مقاصد الإسلام العظيم من وراء تشريع آيات الأحكام وغيرها، ونرى هذا الأمر يراعاه الشارع الحكيم في آيات الجهاد في سبيل الله، لأن الهدف من النصوص هو إنشاء شخصية إسلامية قرآنية بحثة تكون نواة للمجتمع الإسلامي المنشود، لهذا نرى القرآن يلامس جوانب التأثير في النفسية كلما سنحت له الفرصة بذلك، ويضع يده على مواضع الانفعال والحركة في مشاعر الإنسان، ويخاطب القلب ويحرك مشاعره للالتزام والتحلي بشرائع الإسلام وتوجيهاته السمحة.

لقد أبان سيد عن المهمة التربوية التي يقوم بها الجهاد في سبيل الله في تكوين الطليعة الإسلامية، وتهيتها لتقوم بدور القيم على البشرية، حيث يقول: "ولقد كان الله سبحانه قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنجه منذ اللحظة الأولى، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء، وكان قادراً أن ينزل الملائكة تقاتل معهم أو بدونهم وتدمر على المشركين، كما دمرت على عاد وشمود وقوم لوط، ولكن المسألة ليست هي النصر، إنما هي تربية الجماعة المسلمة، التي تعد لتتسلم قيادة البشرية، البشرية بكل ضعفها ونقصها وبكل شهواتها ونزواتها وبكل جاهليتها وانحرافها، وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعداداً عالياً من القادة. وأول ما تقتضيه صلابة في الخلق، وثبات على الحق، وصبر على المعاناة، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف، ووسائل العلاج، ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة، وصبر على الشدة بعد الرخاء وطعمها يومئذ لا ذع مرير"¹.

ويوضح سيد في ذات السياق أمراً في غاية الأهمية حيث يرى أن سنة الله في تربية الجماعة المسلمة تأخذ طريقها في وسائل وأسباب مختلفة، فأحياناً يربي الله الجماعة المسلمة بالخير، وتارة بالشر، ويرببها في وقت بالهزيمة، وأحياناً أخرى بالنصر، وفي هذا يقول: "وقدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه، بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع،

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص484.

ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها ... ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، ويسلط عليه نوراً جديداً، إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريبه المذاق، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسيغ مرارته، وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير، وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة، وتفتح منافذ الرجاء، ويستروح القلب في الهاجرة، ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء"¹.

ثم يبين سبب تميز وتفرد المنهج التربوي الإسلامي في التعامل مع النفسية البشرية بناءً على المثال السابق، حيث يقول: "إنه منهج في التربية عجيب، منهج عميق بسيط، منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق وبالصدق، لا بالإيحاء الكاذب، والتمويه الخادع، فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير، وهو حق كذلك أن تحب النفس أمراً وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر. وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور، وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني، لا يقف عند حد القتال، فالقتال ليس إلا مثلاً لما تكرهه النفس، ويكون من ورائه الخير، إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها، ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها"².

يتضح لنا مدى اهتمام سيد في تفسيره بالجانب التربوي، سواء في إبراز منهج الإسلام التربوي الذي سلكه من خلال أحكامه وتشريعاته، أو بإبراز المقاصد التربوية التي سعى الإسلام لتحقيقها على مستوى الفرد أو الجماعة من خلال النصوص، أو بالآثار التربوية التي تتركها النصوص على جميع الجوانب الإنسانية، وعلى جميع الأصعدة البشرية، وقد كان لنصوص آيات الجهاد حظ وافر من هذه النظرة عند سيد قطب.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص223_224.

² المرجع السابق. ج1. ص224.

المبحث السابع

نقض الأفكار المجانبة للفهم السليم ورد الشبهات

كان للمراحل الفكرية التي مر بها سيد دور في أن يتعرف على جميع الأفكار التي كان يتم تناقلها في تلك البيئة آنذاك، وأن يتعرفها أكثر من غيره لتقلبه بين تلك الأفكار، فكان أقدر على رد الشبهات من غيره لأنه عرفها من الداخل فكان حرياً به وهو يفسر القرآن أن يمر على تلك الدعاوى والشبهات يسفها وينظر إليها من علو. يقول سيد في مقدمة ظلاله واصفاً الجاهلية بأفكارها وتصوراتها: "وعشت في ظلال القرآن أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة، انظر إلى تعجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال وتصورات الأطفال ... وأعجب ما بال هذا الناس؟ ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل، والنداء الذي يرفع العمر ويباركه ويذكاه؟ يا حسرة على العباد"¹.

ولم يقف سيد في نقده عند الجاهلية، بل تعداها ليصحح الأفكار المجانبة للصواب في الفكر الإسلامي، والتي تسربت إلى العقلية الإسلامية تحت ضغط الجاهلية الحديثة، وضغط الواقع، حيث عاب على كثير من الباحثين المنتمين للتيار الإسلامي قولهم بأن الجهاد في سبيل الله مقصور على الدفع دون الطلب، ومن القلائل الذين صرح بأسمائهم في هذا الجانب الشيخ محمد رشيد رضا، ومحمد عزة دروزة. فعند قول السيد رشيد رضا بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عاهد المشركين في الحديبية على السلم والأمان حباً للسلم ونشر دينه بالإقناع والحجة، يقول سيد: "هذا كلام صحيح إذا أريد به أن نشر العقيدة بالإقناع والحجة هو قاعدة هذه الحركة، ولكنه يتجاوز مداه المأمون حين يراد به أن الجهاد في الإسلام لا يكون إلا دفاعاً عن المسلمين، وأن السلم واجب في غير هذه الحالة كما يتجه المؤلف رحمه الله"².

كما يذكر في أثناء حديثه عن الجهاد أن السيد رشيد رضا حاول أن يلم بحلقات سلسلة الأسباب التي أدت إلى الأحكام النهائية الواردة في سورة براءة، ولكنه لم يحاول أن يلم بأصل

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. المقدمة. ص11.

² المرجع السابق. ج3. ص1587 _ 1588.

الاختلاف الجذري الدائم الذي ينشئ هذه السلسلة بحلقاتها¹. كذلك الحال مع الشيخ محمد عزة دروزة حيث يرى سيد أن الشيخ يتكلف الشهادة للدين الإسلامي بأنه دين السلم والسلام، الذي لا يعنيه إلا أن يعيش داخل حدوده في سلام، ومتى أمكنت المهادنة والمعاهدة مع المشركين لا يعدل عنها أبداً، ومنتقداً تفسيره لآيات سورة التوبة في هذه القضية بأن سبب تحلل المسلمين من المعاهدات هو نقض المشركين لها، وأن الذين لم ينقضوا عهودهم المؤبدة أو المؤقتة فقد جاءت السورة بالمحافظة عليها، وجواز تجديد المعاهدات التي انقضت وانتهت مع المشركين، وأن الآيات المرحلية هي الأصل الذي يقيد عموم آيات سورة التوبة².

وهنا لا بدّ من تنبيه مهم في منهج سيد قطب -رحمه الله- في الرد على المخالفين، وذلك أنك إذا أمعنت النظر في نقده ورده تراه عابراً سريعاً لا يعطيه جلّ اهتمامه، وقدراً زائداً عما ينبغي أن يكون عليه الرد، ونظرته هي أن الأولى أن تعرض حقائق الدين وأحكامه وتشريعاته وخصائص التصور الإسلامي في تكاملها الشامل، وتناسقها الهاديء، ووفق طبيعتها الخاصة، وأسلوبها الخاص. وذلك لأنه يصرف المسلم عن همه الأول، ويشغله عن هدفه الحقيقي والأسمى الذي يسعى إليه، ثم إن الرد على الانحراف ينشئ انحرافاً آخر. وقد مثل لذلك بأن الشيخ محمد عبده جاء في بيئة أغلقت باب الاجتهاد وحجرت على العقل وقللت من دوره في الفكر الإسلامي وراجت فيها الخرافة، في الوقت الذي حقق فيه الغرب تفوقاً هائلاً في مجال العلم المادي، مما جعله يعطي العقل مجالاً أكبر مما أعطاه إياه الشرع في الفكر الإسلامي، وبالتالي وقع في كثير من المحظورات مثل إنكار بعض الغيبيات أو تأويلها، أو حتى موقفه بشكل عام من الغيبيات، بسبب إفساح المجال للعقل أن يسبح في غير فلكه الذي أعطاه إياه الإسلام، وأن الإيمان بهذا نوع من الاستخفاف بالعقل، وإن هو إلا هزيمة فكرية أمام انجازات الغرب المادية، واستحياء من مواجهة الغرب بما هو غيب في شرعنا الحنيف، والتحلل من بعض الضوابط المنهجية الأصولية بحجة الاجتهاد وتوسيع مدارك العقل وغيرها من الطوام التي ليس موضوعنا محل للرد عليها، غير أحد الإفرازات غير الشرعية لمدرسته الفكرية ألا وهي: أن الجهاد في الإسلام للدفاع فقط، وليس في الإسلام ما يسمى جهاد

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1587_1588.

² انظر: المرجع السابق. ج3. ص1589.

طلب، وبمثل هذا تطرق لانحراف إقبال في إثبات التجربة للفكر الإسلامي في مواجهة انحراف فناء وسلبية متصوفة زمانه¹.

يقول سيد مبيناً منهجه في الرد على الانحرافات في الفكر الإسلامي المعاصر: "إننا لا نستحضر أماناً انحرفاً معيناً من انحرافات الفكر الإسلامي أو الواقع الإسلامي، ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله، بحيث يصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلي لنا فيما نبذله من جهد في تقرير (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته)، إنما نحن نحاول تقرير حقائق هذا التصور -في ذاتها- كما جاء بها القرآن الكريم، كاملة شاملة، متوازنة، متناسقة، تناسق هذا الكون وتوازنه، وتناسق هذه الفطرة وتوازنها. ذلك أن استحضار انحراف معين، أو نقص معين، أو الاستغراق في دفعه، وصياغة حقائق التصور الإسلامي للرد عليه منهج شديد الخطر، وله معقبات في إنشاء انحراف جديد في التصور الإسلامي لدفع انحراف قديم، والانحراف انحراف على كل حال"².

يتبين لنا مما سبق أن سيد قطب كان له اهتمام في الرد على الشبهات التي تدور حول الإسلام بشكل عام، كما كان له دور في الرد على الشبهات التي تسربت إلى العقلية الإسلامية، وكانت هذه الأخيرة واضحة فيما يخص موضوع الجهاد في سبيل الله أكثر من غيرها، حيث أنه صرّح بأسماء من انتقدتهم في هذا الموضوع على غير عادته فيما عداها من المواضع والموضوعات، حيث كان يتبع في رده على المخالفين منهجاً واحداً مطرداً في ظلاله جميعه، إذ أنه كان أولاً يعرض فكرته الرئيسية ابتداءً يجليها ويدعو إليها، ثم من خلال سياق الحديث عنها يذكر ما أثير حولها، أو ما التبس في فهمها بشكل سريع عابر، لا يجعله همه الأكبر بل همه تجلية معاني التنزيل، وإيضاح خصائص التصور الإسلامي، ذلك أن التوسع في هذا الباب يولد انحرافاً آخر في مقابل الانحراف الأول.

¹ انظر: قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ص 17 _ 22.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ص 17.

المبحث الثامن

ربط النصوص بالواقع المعاصر

نرى سيد يصف واقعنا الذي نعيش، وقضاياها التي نعاني، إن مدلول النص عند سيد واسع الدلالة يتخطى قيود المكان والزمان، ويركز على مدى تطابق النصوص على حياتنا، وحلها لمشكلاتنا، وهذا نابع من مراعاة سمة الواقعية لهذا الدين، يقول سيد: "ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة، وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"¹، ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا. وفي هذا تمكن المعجزة. فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالاً بعينها، هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها. والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية، هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة -أيّاً كان موقفها على الدرج الصاعد- ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة، التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى، يوم التقطها من ذلك السفح السحيق! ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن يثبتها في المجتمع الجديد"².

وكمثال لهذا الربط نجده يربط الجاهلية التي واجهها المسلمون الأوائل، بالجاهلية التي يواجهها ركب الدعوة الإسلامية في كل وقت وحين، مع التنبيه على أن الجاهلية مصطلح غير مختص بزمن أو تاريخ، وفي هذا يقول سيد: "إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر، وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء. ففي كل المناهج التي تعنتتها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر مثلهم: التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، وهذه هي

¹ انظر: ابن قدامة، عبد الله بن أحمد: روضة الناظر وجنة المناظر. مؤسسة الريان. ط2. 2002م. ج2. ص32_44. الشنقيطي، محمد الأمين: مذكرة في أصول الفقه. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ط5. 2001م. ص250_253.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص557.

الجاهلية بكل مقوماتها، الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، حيث يتعبد بعضهم بعضاً من دون الله¹.

ونرى سيد أخذ هذا السمة من منهج القرآن ذاته، حيث إنه جاء ليقوم بدور يتخطى حدود الزمان والمكان، لأنه لم يأت لقوم، ولا لأرض معينة، بل جاء للناس كافة إلى قيام الساعة، وهذا الدور الذي جاء القرآن ليقوم به لا يتأتى إلا بهذا الربط بين نصوص القرآن والواقع، وهذا ما عدّه سيد علامة من علامات إعجاز القرآن، حيث يقول: "ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة، وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها"².

ويصل سيد قطب قمة هذا الربط وهو يتحدث عن الدعوة وقضاياها، وهو يتحدث عن طبيعة المعركة مع أعدائها، وهو يرسم نماذج بشرية لهؤلاء الأعداء، كذلك وهو يبين معالم الطريق إلى الله، أو وهو يعالج أخطاء فكرية وسلوكية للمسلمين المعاصرين، أو وهو يشير إلى واقع الحركة الإسلامية المعاصر ومعركتها مع الجاهلية، وبخاصة في سجون الطغاة، ويبلغ حد الروعة وهو يتحدث عن الابتلاء والاستشهاد، وكأنما كان يسعى بخطى حثيثة للوصول إلى الشهادة، التي جاءتته تسعى إليه في سجنه³.

الفصل الرابع

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج1. ص557.

² المرجع السابق. ج1. ص566.

³ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن. ص 119.

العمق القرآني لشعيرة الجهاد في فكر سيد قطب

المبحث الأول: السور القرآنية المحورية في الفكر الجهادي عند سيد قطب

المبحث الثاني: علاقة الجهاد بشعائر الدين الأخرى عند سيد قطب

المبحث الثالث: مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب

المبحث الرابع: نماذج جهادية قرآنية في تفسير الظلال

الفصل الرابع

العمق القرآني لشعيرة الجهاد في فكر سيد قطب

يتحدث هذا الفصل عن أهم السور القرآنية التي تعتبر محور موضوع الجهاد في سبيل الله (البقرة، الأنفال، التوبة)، وكانت مرجعية قرآنية لسيد قطب في تفسيره، والتي استمد منها أفكاره الجهادية، وأصل بها لنظرياته الجهادية على حد سواء. ثم يعرض لأهم النماذج الجهادية التي ذكرها القرآن الكريم ليستلهم منها العظات والعبر، ثم يسقط ظلالتها على الواقع لتستفيد منها الدعوة الإسلامية المعاصرة في مواجهة الجاهلية الحديثة، ثم يربط موضوع الجهاد في سبيل الله بغيره من شعائر الدين، ويبين طبيعة العلاقة بينها، ليبين في النهاية أن الدين كل واحد لا ينفصل.

المبحث الأول

السور القرآنية المحورية في الفكر الجهادي عند سيد قطب

استمد سيد قطب فكره الجهادي من القرآن الكريم معتمداً على سور بعينها أكثر من غيرها، وذلك كون شعيرة الجهاد في سبيل الله فرضت متأخرة، ثم إن الجهاد لم يفرض مرة واحدة، بل مرّ بمراحل متعددة حتى وصل صورته الأخيرة في آيات سورة التوبة، فنزلت آيات القتال بناء على ذلك متدرجة، وكل قسم من آيات القتال له أحكامه وتشريعاته التي تناسب المرحلة التي نزلت فيها.

المطلب الأول: مكانة سورة البقرة في الفكر الجهادي عند سيد قطب:

من خلال استقراء تفسير سورة البقرة لسيد في ظلالة يتضح لنا أن أهمية سورة البقرة في قضية الجهاد تظهر في الأمور الآتية:

الأول: أنها احتوت على أول ما نزل من القرآن فيما يخص موضوع الجهاد، بعد آية الإذن في القتال. حيث "ورد في بعض الروايات أن هذه الآيات هي أول ما نزل في القتال، نزل قبلها الإذن من الله للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار بأنهم ظلموا. وأحس المؤمنون بأن هذا الإذن هو مقدمة لفرض الجهاد عليهم، وللتمكن لهم في الأرض، كما وعدهم الله في آيات سورة الحج قال تعالى: **لَمْ يَلِي**

بالجهاد في هذه السورة، وبقوانين الحرب والسلام، ليست هي النصوص النهائية، فقد نزلت النصوص الأخيرة في هذا الباب في سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة، ومع أن الإسلام حركة إيجابية تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة، وأنه حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية. ومع هذا فإن قوله تعالى: **أَأَمَرَ تَهْرُورًا** **جَمًّا** **حَمًّا** **خَمًّا** (الأنفال: ٣٩)، يقرر حكماً دائماً للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم¹. وتظهر أهمية السورة في احتوائها على القضايا المحورية التالية في قضية الجهاد:

أولاً: مراحل الجهاد في الإسلام، والتي استمدها من كتاب (زاد المعاد) لابن القيم -رحمه الله-، حيث نقل نصه حرفياً في عدة مواضع من تفسيره، وفي مواطن أخرى من كتبه المختلفة².

ثانياً: سمات المنهج الحركي للدين الإسلامي، والتي ذكرها في غير موضع من تفسيره، بالإضافة إلى ذكرها في كتابه (معالم في الطريق)³.

ثالثاً: بيان طبيعة الجهاد في الإسلام، والتي استمدها حرفياً من أفكار أبرز من تأثر بهم ألا وهو: (أبو الأعلى المودودي)، حيث نقل فقرات كاملة من كتابه: (الجهاد في سبيل الله)⁴.

"يتبين لنا أن آيات سورة الأنفال، تمثل مرحلة وسيطة بين ما كان عليه الحال أول العهد بالمدينة، وما انتهى إليه الحال بعد نزول سورة براءة. ويجب أن تدرس هذه النصوص في ضوء هذه الاعتبارات، ومع أنها تقرر بعض القواعد الأساسية، إلا أنها لا تمثلها في صورتها النهائية، فالصورة النهائية تمثلها نصوص سورة براءة، والتطبيقات العملية لها في أواخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁵.

المطلب الثالث: مكانة سورة براءة في الفكر الجهادي عند سيد قطب:

¹ قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج.3. ص.1508.

² انظر: المرجع السابق. ج.3. ص.1431_1432.

³ انظر: المرجع السابق. ج.3. ص.1432_1433.

⁴ انظر: المرجع السابق. ج.3. ص.1444_1452.

⁵ قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج.3. ص.1541.

تُعدّ سورة براءة محور موضوع الجهاد في سبيل الله، وهي بمنزلة الدستور الجهادي لمن أراد أن يفهم موضوع الجهاد في سبيل الله بشكل واع متدرج، ولقد حظيت هذه السورة بمكانة متميزة عن نظيراتها من السور التي تعرضت لموضوع الجهاد لعدة اعتبارات، منها:

أولاً: إن سورة براءة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، وهي آخر ما نزل من الآيات التي تخص موضوع الجهاد في سبيل الله، إذ العبرة بما آلت إليه نصوص القرآن الكريم في كل موضوع. ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: "فاستقر أمر الكفار معه -بعد نزول براءة- على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به. ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب، وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه. لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر"¹.

ثانياً: تضمنت الأحكام النهائية للجهاد في سبيل الله، حيث كانت تطراً تعديلات على أحكام الجهاد وفق الحاجة الحركية، وطبيعة المرحلة التي يمر بها المسلمون في كل فترة، فجاءت سورة براءة بما استقر عليه أمر الإسلام في موضوع الجهاد. لهذا "فإن هذه السورة المحكمة تحتوي بيان الأحكام النهائية في العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله، ومن ثم ينبغي أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة في تلك العلاقات وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة، حسبما تدل عليها نصوص السورة، كما ينبغي ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل -وهي التي سميها أحكاماً مرحلية - مستندين في هذه التسمية: أولاً وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات، ومستندين أخيراً إلى سير الأحداث في الحركة الإسلامية، وإدراك طبيعة المنهج الإسلامي في هذه الحركة، هذه الطبيعة التي بينها في التقديم للسورة وفي ثناياها كذلك"².

¹ ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد. ج3. ص143_145.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1743.

ثالثاً: أنها ذات أهمية كبرى في بيان طبيعة الإسلام الحركية، خصوصاً في فهم النصوص الجهادية المرحلية، والنصوص الجهادية النهائية. "والسورة بهذا الاعتبار ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته -حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها- وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك. وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد، كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاماً مرحلية فجعلت نهائية ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى"¹.

المطلب الرابع: نماذج لبعض التعديلات القرآنية النهائية على أحكام الجهاد المرحلية:

ظهر مما سبق أن سيد قطب -رحمه الله- قسم آيات الجهاد إلى قسمين:

الأولى: آيات مرحلية وهي التي نزلت في أول أمر الإسلام حتى قبيل نزول سورة براءة مراعية مقتضيات الحركة الإسلامية، وهي وإن احتوت على بعض القواعد الأساسية العامة في هذا الأمر إلا أنه طرأ عليها بعض التعديلات اليسيرة.

الثانية: آيات نهائية وهي آخر ما نزل من القرآن في أمر الجهاد في سبيل الله، وتمثلها بشكل عام آيات سورة التوبة، فهي تمثل الصورة النهائية للجهاد في سبيل الله في الإسلام، حيث استقر الأمر عليها، وتمثل الطبيعة الحركية النهائية في الإسلام.

أما بالنسبة لأهم النماذج المرحلية التي طرأ عليها تغيير في المراحل النهائية فهي كالتالي:

المثال الأول: وهو التعديل الذي طرأ على المرحلة الثالثة من مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله، والتي تشرع للمسلمين رد الاعتداء، وعدم جواز قتال الكفار ما لم يبدوؤهم بالقتال، أو يحولوا بينهم وبين الناس أن يدعوهم إلى الإسلام بأي وسيلة. وهذا يمثله قوله تعالى: **أَأَنتَ الَّذِي كَفَرْتَ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِيَوْمَ الْمُنْفَكَةِ كُفَرْتُمْ بِهِ وَخَفَا عَلَيْكُمْ غَيْبٌ وَجَاءِ السَّيْفُ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ يُذْمَرُونَ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانُوا مُجَاهِدِينَ لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَمَّا نَذَرَ أَلَّا تُغْوَى السُّرَّةَ أُولَئِكَ الْمُجَاهِدُونَ الَّتِي أَدْعَاهُمْ وَقَاتَلُوا بِحَيْثُ كَانُوا فَهُمْ لَا يَظَلَمُونَ** **بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** **قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمُوعًا قَدْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مَعْرُوفًا** **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي كُفِرَتْ بِاللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا نَذَرَ لَأَن يُغْوَى السُّرَّةَ أَذْعَبُوا عَنِ السُّبُلِ فَاصْتَبَقُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ وَاللَّهُ مُجِيبُ الدُّعَاءِ** **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي كُفِرَتْ بِاللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا نَذَرَ لَأَن يُغْوَى السُّرَّةَ أَذْعَبُوا عَنِ السُّبُلِ فَاصْتَبَقُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ وَاللَّهُ مُجِيبُ الدُّعَاءِ**

¹ المرجع السابق. ج. 3. ص. 1564.
² انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص. 191.

هذا الأمر -عدم الاعتداء- في جميع مراحل الجهاد المرحلية والنهائية على حد سواء، حيث يعرّف سيد الاعتداء عند تفسيره لهذه الآية بقوله: "والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الأمنيين المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين، كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حداً للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء، تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام، وتأبأها تقوى الإسلام"¹.

¹ المرجع السابق، ج.1، ص188.

المطلب الثاني: علاقة فريضة الجهاد في سبيل الله بفريضة الصوم:

أكد سيد في غير موضع أن تشريعات الإسلام وأحكامه يكمل بعضها بعضاً في نظام متناسق، يعمل على صياغة الشخصية الإسلامية المثالية الواقعية التي يريد لها من خلال تربيتها بما شرعه لها أن تكون قيماً حقيقياً على دين الله، ثم لترتقي بهذا الدين وتنشيء مملكة الله في أرضه. هذا الدور التكاملي بين هاتين الشعيرتين أبان سيد عن بعض جوانبه في ظلال تفسيره لآية فرض الصيام: ﴿أَ صِيَامُ يَوْمٍ ذُو الْحِجَّةِ يَوْمَ الْبُرُوجِ خَمْسَةَ عَشَرَ وَالْأَشْهُارِ الْحَرَامِ اثْنَتَيْ عَشَرَ خَمْسًا﴾ (البقرة: ١٨٣)، يبين سيد طبيعة العلاقة بين الصيام والجهاد في سبيل الله، وأسباب ورود آيات الصيام في سياق آيات الجهاد في سبيل الله قائلاً: "ولقد كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله، لتقرير منهجه في الأرض، وللقوامة به على البشرية، وللشهادة على الناس، فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها، إثارة لما عند الله من الرضى والمتاع، وهذه كلها عناصر لازمة في إعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك والذي تنتثر على جوانبه الرغاب والشهوات والذي تهتف بالسالكه آلاف المغريات"¹.

في النهاية يبين سيد الغاية النهائية من هذا النسيج المترابط من التشريعات والأحكام والتي تهدف إلى إنشاء شخصية مسلمة تكون نواة حقيقية يعتمد عليها في مشروع إسلامي عالمي شامل، حيث يقول: "إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق. والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب، فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير"².

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص 167_168.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.3. ص 1683.

طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الإعراض"¹.

يرى سيد أن الصبر سلاح ضروري لخوض المعركة الإسلامية في أي ميدان، وهو مفتاح الفرج الذي تعهد الله لمن أخذ به بالنصر والتمكين والرفعة: "وأما الصبر فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة، أية معركة في ميدان النفس أم في ميدان القتال ... وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح"².

وفي موضع آخر يؤكد على هذا المعنى، معدداً الميادين التي يجب على المسلم أن يستخدم فيها سلاح الصبر، حيث يعتبر الصبر زاداً يقات عليه السائرون في طريق الدعوة الإسلامية، بل زاداً لمواجهة أي مشقة كانت، لما يراه من طبيعة الطريق، وطبيعة الشر المتبجح الذي يواجهه قائلاً: "والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغیظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحياناً في الخير، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص 141، وانظر: ج. 1. ص 69.

² المرجع السابق. ج. 3. ص 1529.

المبحث الثالث

مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب

المطلب الأول: التدرج القرآني في تشريع الجهاد في سبيل الله عند سيد قطب:

إن منهج الإسلام الشامل يتعامل مع النفس الإنسانية ويراعي مسارها الفطرية، ولا يغفل كذلك هذا الأمر في تشريعاته وأحكامه، بل كان لهذا الأمر انطباع واضح في كل ما ينبثق عن هذا الدين من أوامر ونواهي شرعية، فنهيه عن شرب الخمر لم يأت مرة واحدة، بل كان له مقدمات هيأت النفس الإنسانية لاستقبال الآية الأخيرة في تحريم الخمر، لأن الإسلام واقعي لم يغفل الظروف التي كانوا يعيشونها من مداومتهم على الخمر، بحيث يصعب تركها مرة واحدة، بل لابد من تهيئة للنفس البشرية قبل ذلك.

وكذلك الحال في فريضة الجهاد في سبيل الله، فقد راعى الشارع الحكيم في تشريعها الظروف والأحوال والأوضاع الإنسانية جميعها، وساهمت خصائص الإسلام جميعها في صياغة الجهاد الإسلامي في صورته الأخيرة. ولم يصل إلينا في صورته النهائية إلا وقد مر بمراحل متعددة راعى فيها مقتضيات الحركة الإسلامية، وطبيعة الظروف والأوضاع التي تمر بها. وهذا كله لحكم ربما ندرك بعض جوانبها.

وقد بين سيد قطب مراحل الجهاد في سبيل الله بشكل عام من خلال نقله لسياق الجهاد في سبيل الله عن الإمام ابن القيم في كتابه (زاد المعاد): "لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في (زاد المعاد)، في الفصل الذي عقده باسم: (فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل): أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته. فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: أأ □ □ بجج جج (المدثر: ١-٢)، فنبأه بقوله: أ □ □ □ □ (العلق: ١)، وأرسله بـ أ □ □ (المدثر: ١)، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة. ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا

جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح. ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة. وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده".

ويتابع قطب في سرد كلام ابن القيم: "ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهدهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم، فقتل الناقض لعهد، وأجل من لا عهد له، عهد مطلق، أربعة أشهر. وأمره أن يتم للموفي بعهد عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به. ومسالم له آمن. وخائف محارب، وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين"¹.

وقد ذكر سيد لكل مرحلة من مراحل تشريع الجهاد الآيات التي تمثل كل فترة، والتي كانت تنزل مراعية مقتضيات الحركة الإسلامية في سيرها، وتطورها، والأوضاع التي تمر بها،

¹ ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد. ج3. ص143_145.

لقد حاول سيد قطب -رحمه الله- جاهداً تلمس الأسباب التي من أجلها لم يشرع الله الجهاد في الفترة المكية، مع ذلك أكد على كون هذه الأسباب تبقى اجتهادات يمكن أن تكون صحيحة، ويمكن أن يعترىها الخطأ ومجانبة الصواب، ولا شك أنه يمكن أن يكون من ورائها علل وحكم أخرى، ذلك أن العقل البشري عاجز عن الإحاطة بالنص من جميع جوانبه، والله أعلم. وتبقى الغاية هي تدبر أحكام الله، والنقص والخطأ وارد على الطبيعة البشرية، والكمال لله. ومن أهم الأسباب التي ذكرها سيد في هذا السياق مايلي:

أولاً: لأن الفترة المكية فترة تربية وإعداد، والتي من أهدافها تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على ذاته أو من يلوذون به، من أجل أن يتجرد في تحركه من أي دافع غير الدين والعقيدة، وتربيته كذلك على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر -كما هي طبيعته- ولا يهتاج لأول مهيج، ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته، وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته¹.

ثانياً: طبيعة قريش وتركيبها القبلية يجعل من الدعوة السلمية آنذاك أنجع في معالجة الأمور، وتفادي الصدام معها بسبب عنجهيتها وأعرافها القبلية الجاهلية².

ثالثاً: تجنباً لإثارة المشاكل والمقاتل في كل بيت، حيث كان أولياء الأمور في كل بيت هم الموكولون برد كل فرد يسلم عن دينه، حيث لم تكن هناك سلطة نظامية. والإذن بالقتال في مثل هذه الظروف والأوضاع معناه أن تقع مقتلة في كل بيت³.

رابعاً: لأنه سبق في علم الله أن بعض الذين يحاربون الإسلام في أول الأمر، سيكونون من جنده المخلصين فيما بعد، كما حصل مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-⁴.

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص. 714.

² انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص. 714.

³ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص. 714.

⁴ انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص. 714.

المؤمنين يواجهوا الباطل اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس، فالقوة المادية لها من الأثر ما يجعلها تفتن القلوب والنفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه. والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد، وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان¹.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد إذا ابتدأهم العدو بالقتال:

يمثل لهذه المرحلة بقوله تعالى: **أَأَنْتُمْ لِمَنْ كَفَرْتُمْ كَارِهِونَ أَنْ يُحَارِبَوكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبِغُونَ لَكُمْ بِئْسَ الْبِرَّ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ كَانُوا لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فَكَانُوا لَا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ غَدَابَتِهِمْ إِنَّمَا يَخْشَوْنَ الْإِنْسَانَ فَهُم مُجْرِمُونَ** (البقرة: ١٩٠-١٩٤). "ورد في بعض الروايات أن هذه الآيات هي أول ما نزل في القتال، نزل قبلها الإذن من الله للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار بأنهم ظلموا. وأحس المؤمنون بأن هذا الإذن هو مقدمة لفرض الجهاد عليهم، وللتمكن لهم في الأرض، كما وعدهم الله في آيات سورة الحج: **أَأَنْتُمْ لِمَنْ كَفَرْتُمْ كَارِهِونَ أَنْ يُحَارِبَوكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبِغُونَ لَكُمْ بِئْسَ الْبِرَّ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ كَانُوا لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فَكَانُوا لَا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُجِيبُ غَدَابَتِهِمْ إِنَّمَا يَخْشَوْنَ الْإِنْسَانَ فَهُم مُجْرِمُونَ** (الحج: ٣٩-٤١).

ومن ثم كانوا يعرفون لم أذن لهم بأنهم ظلموا، وأعطيت لهم إشارة الانتصاف من هذا الظلم، بعد أن كانوا مكفوفين عن دفعه وهم في مكة².

المرحلة الرابعة: الأمر بجهاد المشركين كافة:

وهذه المرحلة تمثلها آيات سورة التوبة، والتي كانت آخر ما نزل من القرآن في شأن الجهاد في سبيل الله، في هذه المرحلة فرض عليهم قتال المشركين كافة ف قيل لهم: **أَأَسْرَأْتُمْ** (التوبة: ٣٦)، وقيل لهم: **أَأَبْنَيْتُمْ** بي بي تر تن تي تي

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 4. ص 2424.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص 185.

رابعاً: أهمية القيادة الصالحة المؤمنة الحازمة في قيادة المعركة، وهذا يظهر في شخصية طالوت من خلال خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، وعدم تخاذله وقد تضاعل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين².

خامساً: "أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود"³.

سادساً: الوضوح والحسم هو نصف الطريق إلى النصر، فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل، ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف، فهو جهاد في سبيل الله، فلا يغشيه الغش الذي لا يدري معه إلى أين يسير⁴.

سابعاً: إن المؤمنين ستار القدرة يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه، وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين، وهذه منة من الله وفضل، ثم يكرمه الله -بعد كرامة الاختيار- بفضل الثواب⁵.

ثامناً: أن الأمور لا تجري بطواهرها، إنما تجري بحقائقها، وحقائقها يعلمها الله، ومقاديرها في يده وحده، فليس على المؤمنين إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا بعهدهم. ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريده. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم -جالوت- على يد هذا الفتى الصغير -

¹ انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 262.

² انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 263.

³ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص 263.

⁴ انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 266.

⁵ انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 269.

داوود-، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم¹.

تاسعاً: أن الغاية العليا من اضطراع قوى الخير ليست المغنم والمكاسب، وليست الأمجاد والهالات، إنما هو الصلاح في الأرض، والتمكين للخير بالكفاح مع الشر².

الفصل الخامس

معالجة سيد قطب للشبهات المثارة حول الجهاد

المبحث الأول: شبهة أن الجهاد وسيلة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام

المبحث الثاني: شبهة تعارض الجهاد مع سماحة الإسلام

المبحث الثالث: شبهة أن الجهاد حالة طارئة

المبحث الرابع: شبهة أن الجهاد مقتبس من الحضارات السابقة

المبحث الخامس: شبهة قصر الجهاد على أحد أفراد (جهاد الدفع)

المبحث السادس: شبهة انتصار الباطل على الحق في بعض الحالات

المبحث السابع: شبهة أن الجهاد وسيلة لاسترقاق الأسرى وسبي النساء

المبحث التاسع: شبهات حول دور المرأة في الجهاد

المبحث العاشر: شبهات حول المرحلية في الجهاد عند سيد قطب

¹ انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 270.

² انظر: المرجع السابق. ج. 1. ص 270.

الفصل الخامس

معالجة سيد قطب للشبهات المثارة حول الجهاد

يتطرق هذا الفصل لأهم الشبهات التي تحدث عنها سيد فيما يتعلق بموضوع الجهاد مفنداً لها في ظلالة، حيث كان له منهج متفرد في الرد على الشبهات، وبعض القضايا والمسائل المتعلقة بالجهاد، أو المنبثقة عنه، والتي دار حولها الجدل قديماً أو حديثاً.

المبحث الأول

شبهة أن الجهاد وسيلة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام

لقد كانت إحدى الشبهات التي تطرق لها سيد قطب في ظلالة: أن الإسلام انتشر بحد السيف، لا بالحجة والبرهان، وذلك إكراه للناس على الإسلام، والله يقول: **أَجْرُ حَيْمَرَ مِمَّ (البقرة: ٢٥٦)**، فهذا يزعمهم تناقض بين النص القرآني، والتطبيق العملي لشرائع الإسلام¹.

أكد سيد -رحمه الله- على أن قضية العقيدة الإسلامية قضية اقتناع بعد أداء واجب البيان من قبل المُبلِّغ، وإدراك لهذه العقيدة ومقتضياتها، وليست قضية إجبار وإكراه وغصب. بل جاء يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته العقلية والوجدانية، كما جاء يخاطب الفطرة الإنسانية، ومن جميل ما برهن عليه سيد في هذا الاتجاه أن الإسلام لم يواجه البشرية ابتداءً بالخارقة المادية لأنها عادة ما تُلجئ النفس الإنسانية إلى الإذعان والتسليم قهراً، بل جاء أولاً بالبيان والبرهان والقرآن، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتق هذا الدين تحت وطأة التهديد والضغط والإكراه بلا بيان ولا إقناع أو اقتناع. وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحمله تبعه عمله وحساب نفسه، وهذه هي

¹ انظر: قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. ج1. ص 293، ج3. ص 1443. وقد قال بهذه الشبهة عدد من المستشرقين أمثال: نلسون، ولطفي ليفونيان، وروبرت بين. انظر: القرضاوي، يوسف: **فقه الجهاد**. ص 479-484. وقد ادعى الدكتور القرضاوي أن من القائلين بهذه الشبهة بعض المتحمسين للجهاد أمثال: (العلباني) في كتابه: **(أهمية الجهاد)**. الميداني، عبد الرحمن حبنكة: **تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد ووجوه النصر**. دعوة الحق. العدد 64. 1987م. ص 135. فرج، محمد: **العسكرية العسكرية في غزوات الرسول**. دار الفكر العربي. ط1. 1998م. ص 150.

أخص خصائص التحرر الإنساني. فهذا يتبين لنا -كما قرر سيد- أن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف إنسان، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً¹.

لقد أزال سيد اللثام عن وجوه من يرمون الإسلام بالتناقض، فيزعمون أن الإسلام فرض بالسيف في الوقت الذي قرر فيه: أن لا إكراه في الدين. وصنف آخر في ملمس ناعم يتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد ويهون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه وانتشاره، ويوحي إلى المسلمين -بطريق ملتوية ناعمة مأكرة- أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة².

لقد جاء الإسلام -لا ليكره أحداً على الإسلام- ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد، فمن أهدافه التي تقتضي الجهاد: دفع الأذى عن المؤمنين، وكفالة الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وكذلك تقرير حرية الدعوة لأفضل وأكمل تصور للحياة والوجود، وإزالة العقبات أمام هذه الدعوة، وأيضاً إقامة النظام الإسلامي في الأرض وحمايته، والنظام الإسلامي هو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان ويحرره من العبوديات جميعها، وهذا ما لا يروق للأنظمة التي تعيش وتضمن وجودها من خلال استعباد البشر، فمثل هذه الدعوة يزعزع وجود الأنظمة الطاغوتية بجميع أشكالها، فكان ولا بد أن تقف أمامها بكل الأساليب والوسائل، لهذا يمكننا القول بأنه إذا لم تقف أي معوقات أمام تحقيق هذه الأهداف فلا يحدث هناك أي قتال، وإنما الشر بطبيعته المتبجحة لا بد وأن يقف أمام تحقيق الإسلام لأهدافه، فلا بد من مواجهة حتمية بين الحق والباطل على هذا الأساس³.

وفي هذا يقول سيد: "لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه، إنما جاهد ليقم نظاماً آمناً يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته. وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم، واطمئنان من يريدون اعتناقه على

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 291.

² انظر: المرجع السابق. ج 1. ص 293.

³ انظر: المرجع السابق. ج 1. ص 294.

الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية، فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام، أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع في ظل النظام العام بعد رفع جميع المؤثرات، ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة¹.

ومن ثم هناك أمر جدير بالوقوف عليه ألا وهو أن الإسلام في الجهاد يواجه الأنظمة والعقبات المادية التي تقف في طريق الدعوة بالسنن، أما الناس فهو يتعامل معهم بمفاتيح القلوب والبيان، والعقيدة لهم فيها حق الاختيار، فلا إكراه ولا إجبار في شأن العقيدة، ففي شأن الناس نص الإسلام على عدم الإكراه على الدين، وفي شأن الأنظمة والقوى السياسية المادية شرع منهجاً كاملاً من الإعداد والقوة²، وفي هذا السياق يقول سيد: " وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة، ونظام المجتمع، وأوضاع البيئة، وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة، كي يخلو له وجه الأفراد من الناس، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم، بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار"³.

يتبين لنا من خلال رد سيد على دعاة هذه الشبهة أن الجهاد جاء لتحطيم العقبات والمؤثرات التي تحول بين الناس ودعوة الإسلام، وأن الناس مخيرون في أمر عقيدتهم، لأنها مبنية على الحجة والبيان والاقتناع، فالإسلام جاء ليحرر الناس من سطوة المستعبدين لا ليكرههم على الإسلام، ويجعلهم أحراراً في اختيار عقيدتهم، فالسيف استخدم للأنظمة المادية والقوى والتجمعات التي تستعبد الناس، أما آحاد الناس وأفرادهم فالإسلام منتدب لرفع الظلم عنهم في جميع الأرض، ورعايتهم وتسيير شؤونهم.

المبحث الثاني

شبهة تعارض الجهاد مع سماحة الإسلام⁴

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1443.

² انظر: المرجع السابق. ج3. ص1433، ج3. ص1441.

³ المرجع السابق. ج3. ص1441.

⁴ القائلون بهذه الشبهة هم أنفسهم المستشرقون القائلون بأن الإسلام انتشر بحد السيف.

إن السماحة مبدأ إسلامي أصيل تتجلى في أرقى صورها لتشمل الإنسانية جميعها بكل أطرافها وأجناسها، ولكن مع هذا لا بد من تقرير مهم ألا وهو: أن حديثنا عن السماحة الإسلامية في سياقها الإسلامي العام الشامل، الذي يفهم من نصوص الإسلام الكلية الشاملة، من غير اجتزاء لبعض النصوص وسلخها عن سياقها، وإعطائها الحجم الأكبر في الخطاب الإسلامي على حساب خطاب القوة والشدّة والبأس، وإبراز جانب السماحة في الإسلام يجب أن يكون متوازناً وفق المنهج الإسلامي العام، فالله عندما قال: أُوْا لِحْمِ الْبَشَرِ لِيْ يَرْحَمَهُمْ لَكُمْ كَرَمٌ كَثِيرٌ (النحل: ١٢٥)، قال في مقابلها: أُوْا لِحْمِ الْبَشَرِ لِيْ يَرْحَمَهُمْ لَكُمْ كَرَمٌ كَثِيرٌ (التوبة: ٧٣)، ولكل مقام مقال. إذاً فالإسلام مع إقراره لمبدأ الحرية الدينية، ونهيه عن الإكراه على الدين، يمتد ليشمل صوراً أخرى من التسامح - كما يبين سيد قطب - أهمها:

أولاً: "يقرر حق المحتاجين جميعاً في أن ينالوا العون والمساعدة - ما داموا في غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة - دون نظر إلى عقيدتهم، ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال، ما دام الإنفاق ابتغاء وجه الله، وهي وثبة بالبشرية لا ينهض بها إلا الإسلام ولا يعرفها على حقيقتها إلا أهل الإسلام"¹.

ثانياً: "يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من الكفار، ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحدق والكراهية والدس والمكر بمثلها، إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة، مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذي يحيطها به الآخرون، أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعاً وبمحببة الخير الشامل يلقي الناس جميعاً يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحدق ولكنه لا يحقد إلا أن يحارب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يزيل العقبات التي تصد الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه في الحياة. يحارب جهاداً في سبيل الله لا انتقاماً لذاته، وحباً لخير البشر لا حدقاً على الذين آذوه، وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس، لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال، وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظلّه بالعدل والسلام، لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية. هذه حقيقة تقررها النصوص

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج. 1. ص 315.

الكثيرة من القرآن والسنة ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى، وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص"¹.

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته، ولهم أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين، فقد ورد في نصوص الشرع من منع واستنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام لا يدع أحداً ممن يطعن فيه، ويموه حقائقه، ويلبس الحق بالباطل، وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته، وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم، وأنه يتمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام، وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام².

يتبين لنا من خلال كلام سيد والأمثلة التي جاء بها، أن الجهاد في سبيل الله لا يتعارض مع مبدأ التسامح، بل إن الجهاد وسيلة لحفظ هذا المبدأ، ووسيلة لنشر التسامح إذا فهم وفق ترتيبه الشرعي المعتبر، فالجهاد مشروع لرفع الظلم عن البشرية جمعاء، ومنتدب لتحرير نوع الإنسان من ربة الاستعباد، ثم إن شرائع الإسلام وأحكامه مرتبطة بتقوى الله، وبيتغى من تطبيقها وامتثالها رضى الله، فلا تقبل إلا أن يؤتى بها على نحو ما شرعه الله، من امتثال آداب الجهاد وأخلاقه، وينتقص من أجر الجهاد بقدر ما يتحلل المرء من الأمور الواجبة فيه. وينصبغ الجهاد بالصبغة الإسلامية الشرعية بقدر امتثال أمر الله فيه والتحلي بآداب الإسلام وأخلاقه التي شرعها الإسلام، وتتسلل خُلل الجاهلية وشعبها إلى الجهاد بقدر التحلل من امتثال أمر الله في الجهاد، وبقدر التحلل من كل أمر مرعي -أي راعاه الله- في تشريعه للجهاد.

المبحث الثالث

شبهة أن الجهاد حالة طارئة

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص453_454.

² انظر: المرجع السابق. ج.2. ص732.

حيث يدعي البعض¹، أن هناك ظروفاً طرأت على المسلمين في أول أمر الإسلام اقتضت منهم الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن أنفسهم أو وطنهم، ولو لم تكن هذه الظروف لما كان هناك جهاد أصلاً.

الناظر في النصوص القرآنية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله يتبين أنها تشكل حجراً أساساً في تركيبة هذا الدين، بحيث لا يمكن الاستغناء عن هذه الشعيرة بأي صورة من الصور، إن هذه المكانة التي احتلتها آيات القتال في كتاب الله بجميع أساليبها وبما احتوته من أحكام أعطتها جدية تجعلها حاضرة في الخطاب الإسلامي في جميع الأزمنة والأمكنة، بحيث لو نزلت آيات الجهاد من كتاب الله لما أمكن جعل الإسلام منهجاً متكاملأً شاملاً للحياة، ولأصبح هناك خللاً بيتاً في الخطاب الإسلامي بشكل عام، وإن أي مشروع إسلامي يغفل جانب الجهاد في سبيل الله ما يفتأ أن يضمحل ويندثر لأنه روح البقاء في الأمة الإسلامية، يقول سيد: "إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام، وعلى مدى طويل من تاريخه، إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي، ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله -صلى الله عليه وسلم- ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ثم يظنه شأنأً عارضاً مقيداً بملايسات تذهب وتجيء ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود"².

لقد بين سيد أن الحالة الدائمة بين الحق والباطل هي المواجهة، وأنه لا يمكن أن يتعايش المنهجان مع بعضهما إطلاقاً، فمنهج الحق منتدب لإزالة نظم الشر من الأرض، والباطل لا بد وأن يقف في وجه الحق وهو ينشر رسالة الخير والنور، وهذا هو الشأن الدائم في العلاقات بين الحق والباطل لا الحالة العارضة، وهذه سنة كونية في كتاب الله، وقد أشار سيد لهذا الأمر بقوله: "لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض، لدفع الفساد عن الأرض: أأ خ لم لي لي

¹ مدرسة المنار ومن تأثر بقولهم، حيث كان هذا الزعم مقدمة لنفي جهاد الطلب في الإسلام، كالشيخ محمد رشيد رضا، ومحمد عزة دروزة، ومحمد أبو زهرة، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور القرضاوي من المعاصرين.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. 1437.

يغفل الواقع، بل كان من أبرز سماته الواقعية، أو الواقعية المثالية، وعن هذا الأمر يقول سيد: " وحيثما وجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان، فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة، وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة، في المراحل التاريخية المتجددة، ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية، والدلالة العامة لخطة الحركة الإسلامية الثابت الطويل"¹.

إن النظر إلى وقائع السيرة النبوية من خلال ملابس الواقع، والتأمل في طبيعة المرحلة التي يعايشها المسلمون آنذاك أمر ضروري في تفسير الموقف التاريخي، وإعطائه صبغة شرعية من خلال فهم الظروف التي يمر بها المسلمون في ذلك الوقت، إذاً فالموقف معلق في فهمه على ظروف وملابسات وواقع محيط بالحدث قد غفل عنه كثير ممن يقرأون النص الشرعي أو التاريخي. وفهم الحدث عينه منسلخاً عن تلك الظروف والملابسات هو من أوقع كثير من أصحاب تلك الشبهات حول الجهاد في سبيل الله بتلك المغالطات.

يقول سيد: "ورؤية الموقف من خلال ملابس الواقع، لا تدع مجالاً للقول بأن الدفاع بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر، إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية، في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام، -إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان إلا سلطان الله، ليكون الدين كله لله- فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الإسلام"².

في وقت ما كان الدفاع قاعدة للجماعة المسلمة، وسيأتي يوم يكون لها قاعدة كما كان، ولكن كانت قاعدة على ضوء الظروف والملابسات التي ناسبتها، واقتضت الحكمة أن تكون لها قاعدة،

¹ المرجع السابق. ج.3. ص1443_1444.
² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.3. ص1439.

وسياتي اليوم الذي سيكون الهجوم لها قاعدة إذا ناسبتها الظروف والواقع المحيط بها، كما ناسبها سابقاً أن يكون الهجوم لها قاعدة في يوم من الأيام.

المبحث الرابع

شبهة أن الجهاد مقتبس من الحضارات السابقة

جاء الإسلام بتصوير كامل شامل للوجود في جميع مناحي الحياة، فكيف لمنهج جاء يستبدل أوضاعاً ونظماً من أصولها الجذرية يجوز عليه أن يأخذ بعض تصوراته وأفكاره من مناهج وتصورات وأوضاع جاء ليستبدلها ويقضي عليها، يقول سيد قطب: "ولم تكن تلك الفتوحات التي بدأت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسارت في طريقها في عهد الخليفين الراشدين بعده مجرد عدوى من الروح الامبراطورية السائدة في الأرض في ذلك الزمان كما يزعم بعض المستشرقين والمتأثرين بمزاعمهم¹، فما كان هذا الدين الذي جاء ليبدل واقع الأرض وتصوراتها ليأخذ العدوى من واقع الأرض وتصوراتها، وما كان رسول الله ليخدع عن حقيقة دين الله بهذه العدوى"².

ثم إن طبيعة الجهاد المنبثقة عن طبيعة الدين الإسلامي تجعله منفصل المنطلقات والتصورات والأهداف والمقاصد عن تلك الحروب التي تخوضها البشرية لتحقيق أهدافها الخاصة، تلك الأهداف التي تسيطر عليها الأهواء البشرية، فكيف لهذا الجهاد أن يكون اقتباساً من حروب الحضارات السابقة التي عبثت بها، وصاغت قوانينها الأيدي البشرية، وسيطرت على أهدافها الأهواء والمطامع الشخصية أو العنصرية أو الطبقية، بينما الإسلام قد راعى في جهاده النوع الإنساني بشكل عام في كل أرض. وفي هذا يقول سيد: "والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك، إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات"³.

¹ لم أجد من قال بهذه الشبهة بالتحديد من المستشرقين أو المتأثرين بهم.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. هامش ص1452.

³ المرجع السابق. ج3. ص1433.

إذاً فمنهج ذو طبيعة منفردة، له من الخصائص والمنطلقات والخلفيات المتميزة، وأحكامه وتشريعاته تأخذ ذات الطابع، من شأنه بدهاً أن يشرع جهاداً مختلفاً عن الحروب التي تقودها البشرية بكل تصوراتها وأفكارها، وكل ما تحمله من غث وهزيل.

ناهيك عن أن الإسلام منهج جاء ليطرح نفسه بديلاً عن النظم والأوضاع التي كانت قائمة آنذاك، أي جاء ليمحوها ويزيلها ويحل محلها، فليس من المعقول أن يستلهم أو يستوحي بعضاً من تصورات وأفكاره من نظم يعتبرها جاهلية بالية.

المبحث الخامس

شبهة قصر الجهاد على أحد أفرادهِ (جهاد الدفع)

لقد أخذ الرد على شبهة قصر الجهاد في سبيل الله على جهاد الدفع حيزاً كبيراً من فكر سيد قطب الجهادي، حيث أصل فيه لعدة قضايا من ضمنها التأصيل لمسألة جهاد الطلب، والتي رد من خلال إبراز مبرراتها على دعاة الاكتفاء بجهاد الدفع¹، وكان مبيّناً في كثير من الأحيان للدوافع التي بسببها قصروا الجهاد على هذا النوع، يقول سيد: "إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية، وليس منهج إنسان، ولا مذهب شيعة من الناس، ولا نظام جنس من الأجناس، ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتقر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة، حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد، إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي"².

إن الإسلام جاء مراعيّاً الواقع الذي يتحرك فيه، ومن مقتضيات هذه السمة -الواقعية- أن يواجه الواقع بوسائل مكافئة له، فاستخدم البيان لدحض التصورات والمعتقدات الفاسدة، واستخدم القوة لإزالة الأنظمة المادية والسياسية التي تقوم على استعباد البشر، وتكون فيها الحاكمة لغير الله، ولو كان البيان واللسان وحده كافياً لحقق الله بالرسول المقصد والغاية من الرسالة. إن قيام مملكة الله في الأرض، وإزالة جميع الأنظمة التي تقوم على الحاكمة لغير الله، وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية، كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن الباطل لا يسلم في سلطانه بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وتاريخ هذا الدين على مرّ الأجيال³.

¹ مدرسة المنار ومن تأثر بقولها. يقول الشيخ محمد شلتوت: "يتبين جلياً أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يقاتل إلا من قاتله، وإلا دفعاً للظلم، ورداً للبغي والعدوان، وقضاءً على الفتنة في الدين". (القرآن والقتال. ص126)، ويقول أبو زهرة: "النبى صلى الله عليه وسلم قاتل لأمرين: الأمر الأول: دفع الاعتداء ... الأمر الثاني: تأمين الدعوة الإسلامية". (العلاقات الدولية في الإسلام. ص92)، ويقول دروزة: "الجهاد: هو دفاع عن النفس، ودفاع عن الإسلام، ودفاع عن المسلمين وبلادهم". (الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث. ص93)، ويقول الدكتور الفرضاوي: "وقد صنفوني من هذا الفريق أي الذين يقصرون الجهاد على الدفع فقط وأنا لا أنكر ذلك، بل أعتز به، وأحمد الله أن هداني إليه، لأنه هو الذي يعبر عن حقيقة الإسلام في القضية". (فقه الجهاد. ج1. ص256).

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1442.

³ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1434.

إن الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض كلها لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً، إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً، إعلاناً يراد له التحقق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل الحركة إلى جانب شكل البيان، ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه. وإذا كان البيان يواجه العقائد والتصورات، فإن الحركة تواجه العقبات المادية الأخرى وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية، والعنصرية والطبقية، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة، وهما معا -البيان والحركة- يواجهان الواقع البشري بجملة بوسائل مكافئة لكل مكوناته، وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض، ومن ثم لا بد للإسلام أن ينطلق في الأرض لإزالة العقبات المادية والمعنوية من أمامه بالبيان والحركة مجتمعين لكي يقيم نظاماً إسلامياً شاملاً¹.

يقول سيد: "والذي يدرك طبيعة هذا الدين -على النحو المتقدم- يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف -إلى جانب الجهاد بالبيان- ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية -بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح (الحرب الدفاعية)- كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام-إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير الإنسان في الأرض بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها ووسائلها المتجددة"².

إن إدراك طبيعة المراحل التي مرّ بها المنهج الإسلامي أمر مهم في فهم نصوص الجهاد في سبيل الله، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها، حيث إن النصوص الجهادية المتقدمة هي نصوص مرحلية كان يطراً عليها التغيير تبعاً في المراحل التالية، وهذا لا يعني أنها لا تحمل من القواعد والمبادئ الثابتة، حتى استقرت الطبيعة والصورة النهائية للجهاد في سبيل الله في سورة براءة. وكثير من الذهول والخلط الحاصل في أمر الجهاد هو نتيجة حتمية لعدم التفريق بين

¹ انظر: المرجع السابق. ج.3. ص1434_1435.

² المرجع السابق. ج.3. ص1435.

النصوص المرحلية والنصوص النهائية في أمر الجهاد، ذلك أن دعاة الاقتصار على جهاد الدفع يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً يمثل القواعد النهائية في هذا الدين¹.

كما أن القائلين بهذا القول يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما، ومن أجل هذا التخليط -وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة- يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: (الحرب الدفاعية)².

إن دحض هذه الشبهة يمكن تصورها أيضاً من خلال معرفة بواعث الجهاد التي شرعها الله، ودوره في الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، حيث اعتبر سيد من أهداف الجهاد العامة تحرير الإنسان من العبوديات البشرية جميعها، وتعبيد الناس لله رب العالمين، وفي هذا يقول: "إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد -ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد- وذلك بإعلان ألوهية الله وحده -سبحانه- وربوبيته للعالمين، إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور"³.

حيث نلاحظ أمرين مهمين ترتكز عليهما قضية التأصيل لجهاد الطلب في فكر سيد قطب:

الأمر الأول: فهو جعله تحرير النوع الإنساني بشكل عام موضوعاً للجهاد في سبيل الله، بحيث يعتبر تحرير نوع الإنسان من عرب وعجم من العبودية لغير الله من أهدافه العليا.

الأمر الثاني: ونظره للأرض -كل الأرض- باعتبارها مجالاً واسعاً متاحاً للدعوة إلى الله، والوقوف أمام الدعوة أن تصل أي إنسان في أي أرض دون نظر إلى حدود أو قوميات أو جنسيات أو أعراق هو من دواعي الجهاد لإزالة تلك العقبات من أمامها ولا بد أن يقف الباطل أمام الدعوة

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1432_1433.

² انظر: المرجع السابق. ج3. ص1433.

³ المرجع السابق. ج3. ص1433.

لأنها تشكل زعزعة لسلطانه، وتعمل على رفع الاستعباد عن يتسلط عليهم الباطل، فالإسلام إذاً منتدب لرفع الظلم عن نوع الإنسان في كل أرض.

ويمكن ملاحظ هذا المعنى في كلام سيد جلياً في النص التالي: "إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي، وليس رسالة خاصة بالعرب، إن موضوعه هو الإنسان نوع الإنسان، ومجاله هو الأرض كل الأرض. إن الله سبحانه ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم، إن الله هو رب العالمين، وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم وأن ينزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى في نظر الإسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر، وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون إلا لله، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين. ولقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لما أمروا به من عبادة الله وحده"¹.

يمكننا بعد هذا البيان ملاحظة أن هناك سبباً ذاتياً ابتدائياً لجهاد الطلب في الإسلام، هذا السبب نابع من طبيعة هذا الدين، ومن ثم من طبيعة الجهاد المنبثق عنه ووظيفته وبواعثه، حيث جاء إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان من العبوديات جميعها في أي أرض، ومن ثم لا بد لهذا الإعلان أن يواجه الواقع بوسائل مكافئة له باستخدام البيان والسيف وفق الترتيب الشرعي المعتبر، حيث يفهم من هذا أن الإسلام منتدب لتحقيق الأهداف التي كلفه الله بتحقيقها، ومن ضمنها: تحرير الإنسان من العبوديات جميعها، ورفع الظلم عن نوع الإنسان، وإقرار حرية الدعوة، وإزالة الأنظمة التي تستعبد الناس، وتقف في طريق الدعوة، هذا كله وغيره من الأهداف الأخرى يجعل الإسلام منتدباً لأن يتحرك ابتداءً لتحقيق أهدافه المشروعة، من غير أن يشكل الباطل عليه خطراً في رقعته الجغرافية التي يتخذها الإسلام منطلقاً للبعوث الإسلامية، هذا بعيداً عن أن الباطل يهاجم الحق ابتداءً لأنه يعلم أنه يشكل خطراً حقيقياً في تقويض أنظمة الظلم والاستعباد، فالإسلام قبل هذا مكلف أن يتحرك ابتداءً لينفض على أنظمة الظلم والاستعباد، ويزيل تأثيرها في اختيار الناس للإسلام قناعة ورضى لا إجباراً وكرهاً، يقول سيد عن هذا المعنى: "إن هناك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته وفي

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1434.

إعلانه العام، وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه، في مراحل محددة، بوسائل متجددة، وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء -ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها- إنه ميرر في طبيعة المنهج وواقعيته، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية، لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة، وموقوتة¹.

إن الدارسين لموضوع الجهاد في سبيل الله لا بد وأن يواجهوا حقيقتين لهما مكانتهما في فهم هذا الموضوع كما ينبغي، وإغفالهما يبعثنا عن الفهم الحقيقي لسياق الجهاد في الإسلام، بل إغفالهما أوقع البعض في كثير من التفسيرات التعسفية، أو التأويلات الفاسدة لنصوص الجهاد، والنأي بها عن الفهم السليم. أما الحقيقة الأولى: "إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله، القائمة على قاعدة العبودية للعباد، أن تحاول سحقه، دفاعا عن وجودها ذاته. ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه، هذه ملابسة لا بد منها تولد مع ميلاد الإسلام ذاته، وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا، ولا خيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا"².

والحقيقة الثانية: "إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء لإنقاذ الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية تاركا الإنسان، نوع الإنسان. في الأرض، كل الأرض للشر والفساد والعبودية لغير الله. إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام، ولكن الإسلام لا يهادنها، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانها في صورة أداء الجزية، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها"³.

وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة، وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية، لا يحركه إلا خوف الاعتداء ... والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق، بين تصور

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1440.

² المرجع السابق. ج3. ص1441.

³ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1442.

أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه. وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداءً، فيدخل في هذه المعركة. المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة. فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً، ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة، تغير المشاعر والمفاهيم الإسلامية تغييراً كبيراً خطيراً¹.

إن عدم التفريق بين كون الإسلام منهجاً إلهياً، جاء لتحرير الإنسان في كل الأرض، فهو بهذا ذو طبيعة عالمية، وبين كونه نظاماً محلياً إقليمياً قطعياً جاء ليدفع العدوان عن البقعة الجغرافية التي يقطنها يؤدي في النهاية إلى خلل في صياغة وتركيبة الجهاد في سبيل الله من حيث المفهوم والمنطلقات والبواعث، يقول سيد في هذا السياق: "إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجاً إلهياً، جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض، وعبودية البشر جميعاً لإله واحد، ويصب هذا التقرير في قالب واقعي، هو المجتمع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد، فلا تحكمهم إلا شريعة الله، التي يتمثل فيها سلطان الله، أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته، فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه، ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصنعة من نظام الدولة السياسي، أو أوضاع الناس الاجتماعية. إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو، واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه. فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية، هذا تصور، وذاك تصور. ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد، ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه، يختلف اختلافاً بعيداً، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه"².

كما نلاحظ تعظيم شأن الأرض على حساب المنهج في نظر من يدعي أن الجهاد كان دفعاً للعدوان على الأرض التي يقطنها الإسلام، ولكن الإسلام يعطي اعتباره الأول للعقيدة والمنهج الذي يتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه، أما الأرض فتأخذ اعتبارها من هيمنة منهج الله عليها فهي بهذا تصبح داراً للإسلام، والدفاع عنها هو دفاعاً عن العقيدة والمنهج والمجتمع الإسلامي قبل كل شيء،

¹ انظر: المرجع السابق. ج. 3. ص. 1442.

² المرجع السابق. ج. 3. ص. 1442.

ومن ثم تأخذ اعتبارها من اتخاذ الإسلام لها منطلقاً للبعوث الإسلامية لأداء مهمتها في تحرير البشرية جمعاء من العبوديات البشرية، وقاعدة لإزالة العقبات المادية التي تقف في وجه الدعوة¹.

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1441.

تصيبهم لخير يريد الله لهم -ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء- فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين¹.

لله في كل أمر حكمة وتدبير فقد يجعل الله الخير فيما ظاهره الشر، والشر فيما ظاهره الخير، ولكن الله يجعل الابتلاء للمؤمنين دائماً خيراً لهم، خاصة فيما يتعلق بأمر دينه العظيم، فالله ليس بتارك دينه، وليس مخلتياً بين الكفار وأوليائه، ولكن هي تربية أوليائه على عينه ليصطفاهم، ويؤهلهم لحمل الرسالة، وتبعات التكليف، وهي التربية بالهزيمة كما التربية بالنصر، -بل الفتنة بالنصر أشد من الفتنة من الهزيمة-، والتربية في جميع الأحوال والهيئات والأوضاع.

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج.1. ص524.

المبحث السابع

شبهة أن الجهاد وسيلة لاسترقاق الأسرى وسبي النساء¹

إن تفسير أي ظاهرة يعتمد على فهم الواقع والبيئة التي نشأت وتطورت فيها تلك الظاهرة، وعلى ضوء تطور الأحداث التاريخية نستطيع أن نفهم القسط الوافر من الظروف التي صاحبت بعض الظواهر التي جاء الإسلام فوجدها أمراً واقعاً منها: الاسترقاق. ولكن يمكن أن يكون هناك خطان عريضان في المسألة، هما لب الموضوع:

الأول: جاء الإسلام ابتداءً فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً يأخذ به المحاربون جميعاً.

الثاني: لم يأمر الإسلام بالرق، ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الأسرى.

أما عن كيفية تعامل الإسلام مع هذه الظاهرة، فاختار الإسلام أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهي بهذا النظام كله -مع الزمن- إلى الإلغاء دون إحداث هزة إجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها، وذلك مع العناية بتوفير ضمانات الحياة المناسبة للرقيق، وضمان الكرامة الإنسانية لهم².

بدأ الإسلام بتجفيف موارد الرق واستثنى من ذلك: أسرى الحرب، ونسل الأرقاء. ذلك أن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف السائد في ذلك الزمان. وما كان الإسلام يومئذ قادراً على أن يجبر المجتمعات المعادية على مخالفة ذلك العرف السائد، الذي تقوم عليه قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي في أنحاء الأرض، ولو أنه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا إجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء في عالم الرق هناك. وفي هذا إطماع لأعداء الإسلام في أهل الإسلام. ولو أنه قرر تحرير نسل الأرقاء الموجود فعلاً قبل أن ينظم الأوضاع الاقتصادية للدولة المسلمة ولجميع من تضمهم لترك هؤلاء الأرقاء بلا مورد رزق ولا كافل ولا عائل، ولا أوامر

¹ من أهم القائلين بهذه الشبهة الشيوعيون في زمن سيد قطب، بالرغم من اشتراك جميع أعداء الحل الإسلامي بهذه الشبهة وغيرها. انظر: علوان، عبد الله ناصح: نظام الرق في الإسلام. دار السلام. ص 7.

² انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 230.

قربى تعصمهم من الفقر والسقوط الخلقي الذي يفسد حياة المجتمع الناشئ، لهذه الأوضاع القائمة العميقة الجذور لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى، بل قال: ﴿أَمْ نَكْفُرُ بِتِلْكَ الْبَلَىٰ الَّتِي كَانَتْ تَكْفُرُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (محمّد: ٤)، ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم. وترك الدولة المسلمة تعامل أسراها حسب ما تقتضيه طبيعة موقفها، فتفادي من تفادي من الأسرى من الجانبين، وتتبادل الأسرى من الفريقين، وتسترق من تسترق وفق الملابس الواقعية في التعامل مع أعدائها المحاربين¹.

ثم بعد ذلك أخذ الإسلام يتعامل مع عدد قليل من الأرقاء، ومع هذا العدد أخذ الإسلام بسن القوانين والتشريعات التي من شأنها أن تجفف منابع الرق مثل المكاتب، والكفارات التي توجب أو تخير المسلمين الأحرار على عتق رقبة؛ كبعض حالات القتل الخطأ، وفدية اليمين، وكفارة الظهار وغيرها. وبذلك ينتهي وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن، لأن إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدي إلى هزة لا ضرورة لها، وإلى فساد في المجتمع أمكن اتقاؤه².

يبقى هنا أمر يشار إليه ويثار في أمر الرق ألا وهو تكاثر الرقيق فيما بعد الخلافة الراشدة، وهذا أمر ناشئ عن الانحراف عن المنهج الإسلامي، والإسلام لا يتحمل أخطاء المنتسبين إليه، فتاريخ المسلمين ليس هو تاريخ الإسلام. فالإسلام يُستمد من أصوله وموارده العذبة، لا من تصرفات المنتسبين إليه، ولا تعد الأوضاع التي نشأت عن الانحراف عن المنهج الإسلامي أوضاعاً إسلامية، ولا تعد حلقات في تاريخ الإسلام كذلك. فالإسلام لم يتغير. ولم تضاف إلى مبادئه مبادئ جديدة، إنما الذي تغير هم الناس³.

أما موضوع السبايا فقد ناقشه سيد أيضاً مبيناً نظرة الإسلام لهذا الموضوع، ويمكن بيان المسألة من وجهة نظر سيد بأن المعسكر الإسلامي كان يعامل أعداءه في مسألة استرقاق الأسرى في الحرب كما يعاملونه من حيث مبدأ الرق، ويفضلهم في نوع معاملته للرقيق وفي اعتبار إنسانيته فضلاً كبيراً، ولم يكن له بد من ذلك. حيث كان استرقاق الأسرى نظاماً عالمياً لا يملك الإسلام

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج 1. ص 230.

² انظر: المرجع السابق. ج 1. ص 230.

³ انظر: المرجع السابق. ج 1. ص 230_231.

إبطاله من جانب واحد وإلا كان الأسرى من المسلمين يصبحون رقيقاً بينما الأسرى من الكفار يصبحون أحراراً، فترجح كفة المعسكرات الكافرة على المعسكر الإسلامي، وتطمع هذه المعسكرات في مهاجمته وهي آمنة مطمئنة من عواقب الهجوم، بل وهي رابحة غانمة، ومن ثم لم يكن بد من أن تكون هناك سبائاً كافرات في المجتمع المسلم، فكيف يصنع بهن؟ إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن، فهناك حاجة فطرية أخرى لا بد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة التي تفسد المجتمع كله وتدنسه، ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات، لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة، فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن، وانقطاع صلتهم بأزواجهن في دار الكفر والحرب¹.

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص622_623.

المبحث الثامن

شبهات حول دور المرأة في الجهاد

لقد حظيت المرأة في نظر الإسلام بمكانة عالية لم تحظَ بمثلها في جميع الأديان والملل، حيث كَرَّمها، وأعلى شأنها، وكان لها حظ مما شرعه الله لنا من كتابه الكريم، وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وراعى طبيعة تركيبها الخلقية في جميع ما شرع لها من التشريعات والأحكام، وجعلها لبنة أساسية في بناء المجتمع المسلم، ولأن أعداء الله يعلمون المكانة التي تحظى بها المرأة في الإسلام، والدور الذي تقوم به في بناء المجتمع الإسلامي، فقد عملوا حثيثاً بكل الوسائل لإفساد المرأة، التي بفسادها يفسد المجتمع والأمة، وعملوا على إثارة الشبهات فيما يخص التشريعات الخاصة بالمرأة المسلمة. وفيما يخص موضوعنا -الجهاد- فلم يسلم من إثارة الشبهات، حيث يقولون¹ إن مشاركة المرأة في الجهاد هو زجُّ بها في أتون حرب لا تصلح وطبيعتها الخلقية الضعيفة، وتارة يقولون إن الإسلام يحدِّد المرأة عن القيام بدورها في المجالات جميعها، ولا يدرون أي أبواب الشبهات يطرقون! ولكن الإسلام دائماً يبني تصوره بناء على النظرة الشاملة المتكاملة التي يراعي فيها جميع الاعتبارات.

إن الدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة المسلمة في الساحات الجهادية يمكن حصره وفق نظرة سيد قطب -رحمه الله- في عدة نقاط مقتضبة، والتي تعتبر قواعد كلية عامة في هذا الاتجاه، حيث لم يسهب سيد في هذا الموضوع إلا بقدر حاجة السياق الذي دعت له للمرور على هذا الموضوع. وهي كالتالي:

الأولى: إن الله لم يكتب الجهاد على المرأة المسلمة، ولم يحرمه عليها.

الثانية: شهدت المغازي الإسلامية أحاداً من النساء -مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزواد- وكان ذلك على قلة وندرة بحسب الحاجة والضرورة، ولم يكن هو القاعدة.

الثالثة: إن الشارع الحكيم لم يكتب الجهاد على المرأة، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون.

¹ انظر: المقدم، محمد بن إسماعيل: المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية. دار ابن الجوزي. القاهرة. ط1. 2005م. ص90، 133، 539_561.

الرابعة: أن طبيعة التكوين العضوي والنفسي يجعل المرأة أقدر على العمل في مجال إعداد الرجال للجهاد وللحياة على السواء من العمل في مجال الجهاد ذاته.

الخامسة: إن المرأة المسلمة أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة في مجال الإنجاب والتربية وإعداد الرجال على المدى الطويل من أن تجاهد بنفسها، فالحرب حين تعمل على حصد الرجال واستبقاء الإناث عادة، تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوّض الفراغ، والأمر ليس كذلك بالنسبة للرجال، فرجل واحد يمكن أن يجعل نساء أربعاً ينتجن، ويملأ الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان، ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال¹.

يظهر لنا مما سبق أن الإسلام بنى نظريته للمرأة فيما يخص موضوع الجهاد، بناءً شاملاً متوازناً، راعى فيه التكاليف الشرعية على اعتبارات عدة منها: الطبيعة الخلقية والنفسية للمرأة، والتكوين العضوي للمجتمع المسلم، والنظر في المصلحة العامة للأمة على المدى البعيد، وهذا يطلعنا على البناء الإسلامي المتوازن في التشريعات والأحكام، وعلى جميل الصنعة الربانية.

¹ انظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2. ص644.

المبحث التاسع

شبهات حول المرحلية في الجهاد عند سيد قطب

وهي من الآراء المهمة التي كان لسيد قطب دور في إبرازها وتجليتها، حيث يقول إن الجهاد مر بمراحل في تشريعه وبيان أحكامه، حيث لم يشرع مرة واحدة، وأن هذه المراحل ليست منسوخة بل باقية إلى قيام الساعة، حيث يراعى فيها الأوضاع القائمة، والحالة التي تمر بها الحركة الإسلامية في كل حين. وهذه ليست شبهة بحد ذاتها بقدر كونها فهماً خاطئاً لكلام سيد قطب في سياق معين، وتفسيراً مجتزئاً لنصوص هذه المسألة، وسلخ لقطع من الكلام من سياقه الخاص، وتعميمه على أمور وموضوعات ومسائل أخرى.

وقد حصل الالتباس في فهم كلام سيد في هذه المسألة في ناحيتين:

الأولى: ظن البعض أن سيد بهذا الكلام يخرق إجماع العلماء، وهو القول بعدم النسخ في مراحل الجهاد¹.

الثانية: تعميم قضية المرحلية في جميع الأحكام².

أما الجواب عن الأولى فإن سيداً لم يخرق الإجماع بهذه الفكرة، وإنما عمل كل نص في كل وضع يناسبه، والقاعدة تقول: "الإعمال خير من الإهمال"، حتى العلماء القائلين بالنسخ -وسيد أحدهم- متفقون على أنه إذا أمكن التوفيق بين النصوص التي قيل إنها منسوخة -بمعنى منسوخ العمل بها- هو خير من القول بنسخها وتعطيلها.

ثم إن كان البعض قد فهم من كلام سيد المجل: "والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام بأمر من الله- لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها"³ بأن ما يجب على الدعوة هو امتثال الصورة النهائية للجهاد في سبيل الله كما نزلت في سورة التوبة، فإن هذا لا يعني

¹ من القائلين بهذا الرأي جماعة المسلمين المعروفة بجماعة التكفير والهجرة، انظر: الخالدي. صلاح عبد الفتاح: في ظلال القرآن في الميزان. ص 261_263.

² القائلون السابقون أنفسهم، انظر: الخالدي. صلاح عبد الفتاح: في ظلال القرآن في الميزان. ص 261_263.

³ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص 1436.

عدم العمل بالمراحل السابقة إذا مرت الدعوة بظروف مشابهة، وقد فسر سيد ما أجمله في كلامه السابق بقوله: "إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة. ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد -عن طريق الاجتهاد المطلق- أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف، في زمان من الأزمنة. في مكان من الأمكنة! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام كما كان حالها عند نزول سورة التوبة"¹.

ثم إن سيد قد دعم قوله هذا بنص الإمام ابن القيم الذي كرره في أكثر من موطن في مقدمة سورتي التوبة والأنفال، فهو شيخه في القول بقضية المرحلية في الجهاد، ثم إن الدكتور صلاح الخالدي ذكر أن الإمام الزركشي في كتابه (البرهان) يقول بالمرحلية في الجهاد²، حيث يذكر الزركشي بأن العمل بمراحل الجهاد الأولى غير منسوخة، وإنما يجوز العمل بها في كل وضع وهيئة تماثلها، وهذا عين ما قال به سيد، وهذا من مرونة الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان، ومثل الإمام الزركشي لذلك بمثاليين عند ذكره لأنواع النسخ قائلًا: "الثالث: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلّة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب لذلك، وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسيء كما قال تعالى: أأ □ □ (البقرة: ١٠٦)، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.

وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الأمرة بالتخفيف أنها منسوخة بأية السيف وليست كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعله توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً، وإلى هذا أشار الشافعي في الرسالة إلى النهي عن ادخار لحوم الأضاحي

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1580.

² انظر: الخالدي، صلاح. في ظلال القرآن في الميزان. ص270.

من أجل الرأفة ثم ورد الإذن فيه فلم يجعله منسوخاً بل من باب زوال الحكم لزوال علته حتى لو فاجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلق بأهلها النهي.

ومن هذا قوله تعالى: **أَأَنْتَ** □ □ □ **الْمُنذِرُ** (المائدة: ١٠٥)، كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه. ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ" عاد الحكم، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت هوى متبعاً وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك"، وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقة فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب ويعود هذان الحكمان أعني المسألة عند الضعف والمسايقة عند القوة يعود سببهما وليس حكم المسايقة ناسخاً لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته"¹.

أما الثانية فإن قضية المرحلة خاصة بموضوع الجهاد، وقد ذكر الدكتور صلاح الخالدي أن سيد قطب صرح بأن المرحلة لا يؤخذ بها إلا فيما يخص الجهاد والتنظيم².

والخلط بين المراحل الجهادية كان سبباً لذهول كثير من الباحثين والدعاة ووقوعهم بمغالطات علمية، وذلك بإعطاء الآيات الجهادية المرحلة -والتي طرأ على بعضها تغييرات وتعديلات- صبغة الآيات النهائية التي نزلت في آخر ما نزل من أمر الجهاد، والتي تعتبر الصورة النهائية للجهاد في الإسلام، أو تقييد الآيات الجهادية النهائية بنصوص آيات الجهاد المرحلة، أو التعسف في تأويل الآيات النهائية لتوافق الآيات المرحلة في تفسيرها. وذلك كصنيع الشيخ محمد رشيد رضا عندما بنى أحكامه على آيات جهادية مرحلية طرأ عليها فيما بعد تعديلات، حيث اتجه إلى أن قاعدة العلاقات بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات الشرك هي المعاهدات السلمية مالم يقع

¹ الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن. ط1. دار إحياء الكتب العربية. 1957م. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ج2. ص42_43.

² انظر: الخالدي، صلاح: في ظلال القرآن في الميزان. ص261.

الاعتداء على المسلمين في دارهم، وأن هذا ممكن دائماً، وغيره هو الاستثناء¹. وكان الشيخ محمد عزة دروزة أشد جنوحاً في هذا الموضوع من الشيخ محمد رشيد رضا حيث لا يرى سبباً لهذه النصوص الجديدة الأخيرة في سورة التوبة إلا نقض بعض المشركين لعهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الذين لم ينقضوا عهودهم -سواء كانت مؤقتة أو مؤبدة- فقد جاءت السورة بالمحافظة عليها، وأنه حتى إذا انقضت عهودهم فإنه يجوز أن تعقد معهم معاهدات جديدة، وكذلك الناكثون أنفسهم، وأن الآيات المرحلية هي الأصل الذي يقيد عموم الآيات الأخيرة في هذه السورة².

وكان نقد سيد لكلام الشيخ دروزة منصباً في اتجاهين:

الأول: "أنه ابتداء لا يلقي باله إلى حق الإسلام المطلق في أن ينطلق في الأرض لتحرير البشرية من العبودية للعباد، وردّها إلى الله وحده، حيثما كان ذلك ممكناً له، بغض النظر عما إذا كان هناك اعتداء على أهله داخل حدودهم الإقليمية أم لم يكن، فهو يستبعد هذا المبدأ ابتداءً. وهو المبدأ الذي يقوم عليه الجهاد في الإسلام. وبدونه يفقد دين الله حقه في أن يزيل العقبات المادية من طريق الدعوة، ويفقد كذلك جديته وواقعيته في مواجهة الواقع البشري بوسائل مكافئة له في مراحل متعددة بوسائل متجددة، ويصبح عليه أن يواجه القوى المادية بالدعوة العقيدية! وهو هزال لا يرضاه الله لدينه في هذه الأرض"³.

الثاني: "أن المؤلف لا يلقي باله إلى طبيعة المنهج الحركي في الإسلام، ومواجهته للواقع بوسائل مكافئة. فهو يحيل الأحكام النهائية الأخيرة على النصوص المرحلية قبلها دون التفات إلى أن النصوص السابقة كانت تواجه حالات واقعة غير الحالة التي جاءت النصوص الأخيرة تواجهها، وحقيقة إن هذه الأحكام ليست منسوخة بمعنى أنه لا يجوز الأخذ بها مهما تكن الأحوال بعد نزول الأحكام الأخيرة-فهي باقية لمواجهة الحالات التي تكون من نوع الحالات التي واجهتها. ولكنها لا تقيد المسلمين إذا واجهتهم حالات كالتالي واجهتها النصوص الأخيرة، وكانوا قادرين على تنفيذها"⁴.

¹ انظر: رضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1990م. ج10. ص134_148، قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1589.

² انظر: دروزة، محمد عزة: التفسير الحديث. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. 1383هـ. ج9. ص349_357. قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1589.

³ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1591.

⁴ قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1592.

ومن النماذج المعاصرة التي التبس عليها مفهوم المرحلة عند سيد قطب الدكتور يوسف القرضاوي حيث يقول: " كيف هان على سيد قطب -وهو رجل القرآن- الإعراض عن هذه الآيات كلها (الآيات التي قيدت القتال المطلوب بأنه لمن قاتلنا) وغيرها بدعوى أنها جاءت لمرحلة ثم انتهى أمرها، وبطل مفعولها؟ أو حكم عليها بالإعدام باسم النسخ؟ أو أي اسم آخر؟ والأصل فيما أنزل الله تعالى من النصوص، هو البقاء والخلود واستمرار العمل بها، ما لم يوجد يقين قاطع لا شك فيه بنسخ هذا النص"¹. وقراءة سريعة متكاملة في فقه الجهاد عند سيد قطب كفيلة بأن ترينا بطلان مثل هذا الفهم لكلام سيد، حيث لم يبطل سيد مفعولها، ولم يقل إنها جاءت لمرحلة وانتهى أمرها، وإنني لأعجب كيف يخرج هذا الكلام من عالم أمثال الدكتور يوسف القرضاوي، مع أن لسيد كلاماً صريحاً منافياً لكل ما نقده عليه في هذا الجانب، لعل منها نصين في سياق حديثه عن المرحلة في الجهاد في سبيل الله في مقدمة سورة براءة غير الذي نقلناه سابقاً:

الأول: وفيه تصريح من سيد بجواز العمل بالنصوص المرحلة إذا كان الواقع المعاصر مشابهاً للواقع الذي نزلت فيه تلك النصوص، مع التأكيد على ضرورة العمل للوصول إلى واقع النصوص النهائية، حيث يقول: "إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلة لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام. ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين، إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها، حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة، والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلة"².

الثاني: وفيه مدى السعة والمرونة في الفقه المرهلي الذي يقول به سيد، وأنه يُعمل فيه النصوص جميعها، كل نص في الواقع الذي يلائمه، وفيه يقول: "فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم -اللحظة ومؤقتا- غير مكلفين بتحقيقها -ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها- ولهم

¹ القرضاوي، يوسف: فقه الجهاد. ط1. مكتبة وهبة. القاهرة. 2009م. ج1. ص403.

² قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3. ص1581.

في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عند ما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها، ولكن عليهم ألا يلجأوا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية، وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوي المتين. وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام! إنه دين السلم والسلام فعلاً، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله، وإدخال البشرية كافة في السلم كافة، إنه منهج الله هذا الذي يراد للبشر على الارتقاء إليه، والاستمتاع بخيره وليس منهج عبد من العبيد ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للناس أفراداً في اختياره"¹.

إن القول بالمرحلية عند سيد قطب قول معتبر، لم يتفرد به وحده، وإنما دعم كلامه بنصوص من كلام أعلام الأمة الإسلامية أمثال ابن القيم، وهناك من العلماء من قال به بالمفهوم أمثال الإمام الزركشي، وهو قول يدل على سعة ومرونة الإسلام، وصلاحه لكل زمان ومكان، ولقد فهم بعض العلماء والباحثين من كلام سيد أموراً - كما رأينا- فأبعدوا النجعة، وذلك بسبب قراءتهم المجتزأة -غير المتكاملة- أحياناً، واستلهم لنصوص من كلامه من سياقها الحقيقي، وما ضرّ سيد ذلك، وإنما العتاب على عدم العلمية والموضوعية التي ينتهجها البعض في البحث أو النقد، وهناك أسبابٌ أخرى كثيرة يمكن أن تكون سبباً لسوء فهم كلام سيد ليس هنا موضعها.

¹ المرجع السابق، ج.3، ص1582.

الخاتمة

في نهاية هذه الرسالة وبعد البحث والتنقيب في موضوع الجهاد في سبيل الله في فكر سيد قطب، من خلال تفسيره الضلال، أودّ تلخيص أهم النتائج التي قد وفقني الله لها:

1. مرّ سيد قطب في عدّة مراحل فكريّة مختلفة تقلب بين أعطافها، كان لها دور في صياغة العقلية الفكرية له، كما كان لها دور في التباين بين كتاباته المختلفة حيث كانت كتبه تأخذ انطباع المرحلة التي كتبت فيها.
2. يجب على الباحثين الأخذ بعين الاعتبار المراحل الفكرية التي مرّ بها سيد في تفسير أقواله وآرائه، وبناء وجهات النظر في أيّ الموضوعات التي تطرق إليها.
3. تأثر سيد قطب بعدد من العلماء والدعاة المتقدمين والمتأخرين، فقد تأثر ب (ابن القيم) كثيراً، ونقل كلامه في عدة مواضع من تفسيره، فيما يخص موضوع المرحلة بالتحديد، كما كان أبرز من تأثر بهم من المعاصرين (أبو الأعلى المودودي)، ونقل عنه كثيراً في مختلف الموضوعات، لكن كان أبرزها موضوع الجهاد في سبيل الله.
4. سار سيد قطب في تفسيره على بعض القواعد المنهجية المطردة التي تميز بها دون غيره، أو شارك غيره في بعضها منها: النظرة الشاملة للقرآن، التأكيد على المقاصد الأساسية للقرآن، بيان المهمة العملية الحركية للقرآن، المحافظة على جو النص القرآني، دخول عالم القرآن بدون مقررات سابقة، الثقة بالنص القرآني، بيان أهمية العقيدة وأثرها، إزالة التعارض الموهوم بين النصوص، بيان حكمة التشريع، والبعد الواقعي للنصوص.
5. كان للجهاد في سبيل الله حظوة ومكانة في فكر سيد قطب، وذلك نابع من امتداده العقائدي، وأثره التربوي والإيماني، ودوره في إنشاء وتربية الفرد والمجتمع المسلم وحمايتهما، وإبلاغه دعوة الإسلام.

6. شرع الجهاد في سبيل الله لتحقيق عدة مقاصد، وقد ذكر سيد قطب منها: تحقيق الأمن للمسلمين ودفع الفتنة والأذى عنهم، تقرير حرية الدعوة الإسلامية، إقامة النظام الإسلامي وحمائته، وإقامة العدالة الكبرى في الأرض.

7. تميز الجهاد عند سيد قطب بعدة خصائص منها: جهاد رباني، عقائدي، واقعي، متوازن، عالمي، حركي، بالإضافة إلى ميزة الثبات.

8. تميز تفسير سيد قطب لآيات الجهاد بعدة خصائص منها: ربط الموضوع بالعقيدة، الوضوح والصراحة، الجدية في الطرح، معايشة وقت التنزيل، الثقة المطلقة بالنص والتسليم بدلالته، بروز الجانب التربوي، نقض الأفكار المجانبة للصواب ورد الشبهات، بالإضافة إلى ربط النصوص بالواقع المعاصر.

9. استمد سيد قطب فكره الجهادي من القرآن الكريم معتمداً على سور بعينها أكثر من غيرها، وكان اعتماده على سورة البقرة، الأنفال، والتوبة، وذلك لا يعني أن غيرها من السور دونها من الفضل، ولكن تناولها لموضوع الجهاد كان أكبر من غيرها.

10. تبرز أهمية سورة البقرة في أنها احتوت على أول ما نزل من القرآن فيما يخص موضوع الجهاد، بعد آية الإذن في القتال، بالإضافة أن هذه الآيات تمثل بعض الأحكام الثابتة في القتال بوجه عام، والتي لم يعدل محتواها من ناحية المبدأ إلا تعديلاً يسيراً فيما نزل بعدها من القرآن، ثم إن آيات القتال في هذه السورة تعتبر مفتاح تفسير آيات الجهاد، لأن سيد قدم في تفسيرها كلمة مجملة عن الجهاد في الإسلام تصلح أساساً لتفسير آيات القتال في كل المواضع القرآنية، ولأنها جاءت بقواعد عامة في الجهاد في سبيل الله، والتي لم يطرأ عليها تعديل من ناحية المبدأ.

11. تظهر القيمة العلمية لتفسير سورة الأنفال عند سيد قطب من خلال ما أبداه سيد في مقدمتها من موضوعات لها أهميتها في الفكر الجهادي منها: مراحل الجهاد في الإسلام، وسمات

المنهج الحركي، وبيان طبيعة الإسلام، بالإضافة إلى احتواء السورة على بعض القواعد العامة الثابتة التي لم يطرأ عليها تعديل من ناحية المبدأ.

12. تُعدُّ سورة التوبة بمثابة الدستور الجهادي في الإسلام، حيث إنها آخر ما نزل من القرآن الكريم، وهي آخر ما نزل من الآيات التي تخص موضوع الجهاد في سبيل الله، إذ العبرة بما آلت إليه نصوص القرآن الكريم في كل موضوع.

13. هناك ترابط بين موضوع الجهاد في سبيل الله وغيرها من الموضوعات القرآنية، حيث جاءت بعض الموضوعات في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وكان أبرزها موضوع الإنفاق في سبيل الله، وكان هذا الترابط ذو حكمة في بيان علاقة تلك الموضوعات بموضوع الجهاد في سبيل الله.

14. شرع الجهاد في سبيل الله على عدة مراحل، فقد راعى الشارع الحكيم في تشريعها الظروف والأحوال والأوضاع الإنسانية جميعها، وساهمت خصائص الإسلام جميعها في صياغة الجهاد الإسلامي في صورته الأخيرة، ولم يصل إلينا في صورته النهائية إلا وقد مر بمراحل متعددة راعى فيها مقتضيات الحركة الإسلامية، وطبيعة الظروف والأوضاع التي تمر بها.

15. قسّم سيد مراحل تشريع الجهاد إلى عدة مراحل هي: مرحلة منع الجهاد، مرحلة الإذن بالجهاد، الأمر بالجهاد إذا ابتدأ العدو المسلمين بالقتال، ثم استقر به الأمر بجهاد المشركين كافة.

16. كان لسيد منهج متفرد في الرد على الشبهات، حيث لم يعطها جلاً اهتمامه، بل كان رده عليها سريعاً عابراً، وإنما كان اهتمامه ينصب في إبراز خصائص التصور الإسلامي، وتوضيح الفكرة الرئيسية التي يدعو إليها، وذلك أن الرد على الانحراف يولد انحرافاً آخر. ونادراً ما كان سيد يذكر أسماء من ينتقدهم، وإنما كان التعريض بصاحب القول هو السمة الغالبة.

17. الجهاد ليس وسيلة لإكراه الناس على الإسلام، وإنما هو وسيلة لتحطيم القوى المادية، والتجمعات الجاهلية التي تستعبد الناس، وتحول دون وصول دعوة الله إليها، وأما الأفراد فهم مخيرون في أمر عقيدتهم لأن العقيدة قضية اقتناع. حيث إن الإسلام لم يواجه البشرية ابتداءً بالخارقة المادية لأنها عادة ما تُلجئ النفس الإنسانية إلى الإذعان والتسليم قهراً، بل جاء أولاً بالبيان والبرهان والقرآن، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتقن هذا الدين تحت وطأة التهديد والضغط والإكراه بلا بيان ولا إقناع.

18. إن السماحة مبدأ إسلامي أصيل تتجلى في أرقى صورها لتشمل الإنسانية جميعها بكل أطيافها وأجناسها، ولكن الحديث عن السماحة الإسلامية في سياقه الإسلامي العام الشامل، الذي يفهم من نصوص الإسلام الكلية الشاملة، من غير اجتزاء لبعض النصوص وسلخها عن سياقها، واعطائها الحجم الأكبر في الخطاب الإسلامي على حساب خطاب القوة والشدّة والبأس، وإبراز جانب السماحة في الإسلام يجب أن يكون متوازناً وفق المنهج الإسلامي العام.

19. أخذ الرد على شبة قصر الجهاد في سبيل الله على جهاد الدفع حيزاً كبيراً من فكر سيد قطب الجهادي، حيث أصل فيه لعدة قضايا من ضمنها التأصيل لمسألة جهاد الطلب، والتي رد من خلال إبراز مبرراتها على دعاة الاكتفاء بجهاد الدفع، وكان مبيناً في كثير من الأحيان للدوافع التي بسببها قصر الجهاد على هذا النوع من الجهاد.

20. يواجه الإسلام الواقع بوسائل مكافئة له، فاستخدم البيان لدحض التصورات والمعتقدات الفاسدة، واستخدم القوة لإزالة الأنظمة المادية والسياسية التي تقوم على استعباد البشر، وتكون فيها الحاكمة لغير الله، ولو كان البيان واللسان وحده كافياً لحقق الله بالرسول المقصد والغاية من الرسالة.

21. إن إدراك طبيعة المراحل التي مرّ بها المنهج الإسلامي أمر مهم في فهم نصوص الجهاد في سبيل الله، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها، حيث أن النصوص الجهادية المتقدمة هي نصوص مرحلية كان يطرأ عليها التغيير تبعاً في المراحل التالية وهذا لا

يعني أنها لا تحمل من القواعد والمبادئ الثابتة_ حتى استقرت الطبيعة والصورة النهائية للجهاد في سبيل الله في سورة براءة.

22. كثير من الذين يحصرون الجهاد في سبيل الله بأنه للدفع فقط، يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.

23. هناك مبرر ذاتي ابتدائي لجهاد الطلب في الإسلام، مبرر نابع من طبيعة هذا الدين، ومن ثم من طبيعة الجهاد المنبثق عنه ووظيفته وبواعثه، حيث جاء إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان من العبوديات جميعها في أي أرض.

24. إن عدم التفريق بين كون الإسلام منهجاً إلهياً، جاء لتحرير نوع الإنسان في كل الأرض، فهو بهذا ذو طبيعة عالمية، وبين كونه نظاماً محلياً إقليمياً قطرياً جاء ليدفع العدوان عن البقعة الجغرافية التي يقطنها يؤدي في النهاية إلى خلل في صياغة وتركيبه الجهاد في سبيل الله من حيث المفهوم والمنطلقات والبواعث.

25. جاء الإسلام ابتداءً فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً يأخذ به المحاربون جميعاً، ولم يأمر الإسلام بالرق، ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الأسرى.

26. كان المعسكر الإسلامي يعامل أعداءه في مسألة استرقاق الأسرى في الحرب كما يعاملونه من حيث مبدأ الرق، ويفضلهم في نوع معاملته للرق، حيث كان استرقاق الأسرى نظاماً عالمياً لا يملك الإسلام إبطاله من جانب واحد وإلا كان الأسرى من المسلمين يصبحون رقيقاً بينما الأسرى من الكفار يصبحون أحراراً، فترجح كفة المعسكرات الكافرة على المعسكر الإسلامي، وتطمع هذه المعسكرات في مهاجمته وهي آمنة مطمئنة من عواقب الهجوم.

27. إن المرأة المسلمة أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة في مجال الإنجاب والتربية وإعداد الرجال على المدى الطويل من أن تجاهد بنفسها، فالجهد حين تعمل على حصد الرجال واستبقاء الإناث عادة، تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ، والأمر ليس كذلك بالنسبة للرجال، فرجل واحد يمكن أن يجعل نساء أربعاً ينتجن، ويملأ الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان، ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال.

28. المرحلة في الجهاد من الآراء المهمة التي ساهم سيد في إبرازها وتجليتها، حيث يقول إن الجهاد مرّ بمراحل في تشريعه وبيان أحكامه، حيث لم يشرع مرة واحدة، وأن هذه المراحل ليست منسوخة بل باقية إلى قيام الساعة، حيث يراعى فيها الأوضاع القائمة، والحالة التي تمر بها الحركة الإسلامية في كل حين.

29. الخلط بين المراحل الجهادية كان سبباً لذهول كثير من الباحثين والدعاة ووقوعهم بمغالطات علمية، وذلك بإعطاء الآيات الجهادية المرحلية -والتي طرأ على محتواها بعض التغييرات والتعديلات- صبغة الآيات النهائية التي نزلت في آخر ما نزل من أمر الجهاد، والتي تعتبر الصورة النهائية للجهاد في الإسلام، أو تقييد الآيات الجهادية النهائية بنصوص آيات الجهاد المرحلية، أو التعسف في تأويل الآيات النهائية لتوافق الآيات المرحلية في تفسيرها.

30. إن القول بالمرحلة عند سيد قطب قول معتبر، لم يتفرد به وحده، وإنما دعم كلامه بنصوص من كلام أعلام الأمة الإسلامية أمثال ابن القيم، وهناك من العلماء من قال به بالمفهوم أمثال الإمام الزركشي، وهو قول يدل على سعة ومرونة الإسلام، وصلاحه لكل زمان ومكان.

،98 ،74 103	39	أ ت ه ث ج ح خ	الأنفال
74	42	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الأنفال
70	57	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الأنفال
127 ،61	60	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الأنفال
26	67	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الأنفال
75	72	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الأنفال
،101 ،114 118	29	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	التوبة
،114 118	36	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	التوبة
129	73	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	التوبة
70	123	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	التوبة
105	92	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	التوبة
129	125	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	النحل
،97 ،114 ،117 ،118 132	41-39	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الحج
35	47	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الروم
35	51	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	غافر
،27 ،26 149 ،59	4	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	محمد
85	28	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	الفتح
25	5	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	المزمل
112	2-1	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	المدثر
112	1	أ ت ه ث ج ح خ م ن ي ز	العلق

مسرد الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
37	"الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة"
56	" المدينة درع حصينة"
57	"بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية"
52،40	"بني الإسلام على خمس"
25	"مضى عهد النوم يا خديجة"

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط1. 1422هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **السنن الكبرى**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط3. 2003م.
- الحومي، هيام عباس: **شخصية مثيرة للجدل الفكري**: <http://kenanaonline.com>
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: **المنهج الحركي في ظلال القرآن**. دار عمار. عمان. ط2. 2000م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: **سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد**. دار القلم. دمشق. ط1. 2000م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: **سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد**. دار القلم. دمشق. ط2. 1994م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: **في ظلال القرآن في الميزان**. دار عمار. عمان. ط2. 2000م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: **مدخل إلى ظلال القرآن**. دار عمار. عمان. ط2. 2000م.
- الزركشي، بدر الدين: **البرهان في علوم القرآن**. دار إحياء الكتب العربية. ط1. 1957م. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

- الزبياري، إياد كامل: **التداول السلمي للسلطة في نظام الحكم الإسلامي**. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 2012م.
- السقاف، علوي بن عبد القادر: **تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن**. دار الهجرة للنشر والتوزيع. ط2. 1995م.
- الشنقيطي، محمد الأمين: **مذكرة في أصول الفقه**. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ط5. 2001م.
- الطبري، محمد بن جرير: **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق: أحمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط1. 2000م.
- العلياني، علي بن نفيح: **أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية**. دار طيبة. ط1. 1985م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن: **الرسالة القشيرية**. دار المعارف. القاهرة. تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف.
- القرضاوي، يوسف: **فقه الجهاد**. مكتبة وهبة. القاهرة. ط1. 2009م.
- القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط2. 1964م.
- المقدم، محمد بن إسماعيل: **المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية**. دار ابن الجوزي. القاهرة. ط1. 2005م.
- الميداني، عبد الرحمن حبنكة: **تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد ووجوه النصر**. دعوة الحق. العدد 64. 1987م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط27. 1994م.
- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد: جامع العلوم والحكم. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط7. 2001 م.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني: مسند الإمام أحمد. مسند جابر بن عبد الله. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد. مؤسسة الرسالة. ط1. 2001م.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد: روضة الناظر وجنة المناظر. مؤسسة الريان. ط2. 2002م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي سلامة. دار طيبة. ط2. 1999م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. الرسالة العالمية. دمشق. 2009م.
- أبو زيد، وصفي عاشور: في ظلال سيد قطب. صوت القلم العربي. مصر. ط1. 2009م.
- أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية في الإسلام. الدار القومية. القاهرة. 1964م.
- حسين بن محمود: مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب. دار الجبهة. 1429 هجرية.
- دروزة، محمد عزة: التفسير الحديث. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. 1383هـ.
- دروزة، محمد عزة: الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث. دار اليقظة. دمشق. 1975م.
- رضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1990م.

- زرواق، نصير: مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب. دار السلام. القاهرة. ط1. 2009م.
- شلتوت، محمود: القرآن والقتال. دار الفتح. بيروت. ط2. 1983م.
- عباس، فضل حسن: المفسرون مدارسهم ومناهجهم. دار النفائس. الأردن. 2007م.
- عزام، عبد الله: عملاق الفكر الإسلامي. مركز شهيد عزام الإسلامي. بيشاور. ط1.
- قطب، سيد: السلام العالمي والإسلام. دار الشروق. القاهرة. 2006 م. ط14.
- قطب، سيد: في ظلال القرآن. دار الشروق. القاهرة. ط38. 2009 م
- قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. دار الشروق. القاهرة. ط17. 2007م.
- قطب، سيد: معالم في الطريق. بلا دار نشر. فلسطين. ط2. 2006 م.
- فرج، محمد: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول. دار الفكر العربي. ط1. 1998م.
- مسلم، ابن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- نسيرة، هاني: أطروحة لنيل الدكتوراة حول تأثير ابن تيمية على التنظيمات الجهادية. نشر على موقع: <http://www.islammaghribi.com>
- هيكل، محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية. دار البيارق. بيروت. ط2. 1996م.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: الموسوعة الفقهية الكويتية. دار السلاسل. الكويت. ط2.

**An- Najah National University
Faculty of Graduates Studies**

**The Jihad in the Thought of Sayed Qutb
(Through His Interpretation Book *THILAL
ALQURAN*)**

**By
Thaer Omar Abdul hafeeth Qato**

**Supervised by
Dr. Odeh Abdullah**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master Fundamentals of Islamic Law (Usul Al-Din),
Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus,
Palestine.**

2017

**The Jihad in the Thought of Sayed Qutb (Through His Interpretation
Book *THILAL ALQURAN*)**

By

Thaer Omar Abdul hafeeth Qato

Supervision By

Dr. Odeh Abdullah

Abstract

This study aims at shedding the light on the subject of Jihad in the sake of Allah from the perspective of one of the men of Islamic *Dawah* and since in the modern time. He is Sayed Qutb - May Allah have mercy on him - through his biggest scientific project -*FI THILAL ALQURAN* (In the shades of the holy Quran) -the study shows the methodological rules that Sayed follows in his book, the importance and purposes of Jihad in the sake of Allah and its features; and the the characteristic of his interpretation of the Jihad verses. In addition, the study dealt with the legislative stages that Jihad went through and the suspicions raised around it, All that through an inductive and analytical methodology.

This study consists of five chapters and a conclusion. The first chapter identified Sayed Qutb, his birth, life, and his death as a martyr. It mentioned some literature and intellectual aspects of Sayed and the intellectual stages he went through in his life. The chapter was concluded by a general definition of his interpretation book and its methodologies.

In the second chapter, the researcher talked about the importance of Jihad for Sayed, the general goals of Jihad in the sake of Allah and some features of Jihad which Sayed mentioned in his book. Among them: The

Jihad is allowed by Allah in the Quran and Sunna. This is considered as the main feature which the other features came under. Among them also, it is a Jihad with a belief dimension, a realistic Jihad with its consequences, a balanced and fair Jihad with many examples on that, it is international Jihad, its subject is the human and its battlefield is all lands. The last feature is the consistency in the general matters of belief dimension and the flexibility in the other matters which are judged by the reality and the circumstances with the Muslim people go through.

The third chapter addressed the features of Sayed interpretation of Jihad verses and that he linked the subject of Jihad to the Islamic belief, and the reflections of this linking on Jihad. It also discussed the seriousness and clarity in his interpretation. It shows Sayed's knowledge of the time and reasons of revelation and his confidence in the texts and their quranic connotations. He focused on the educational aspect of the verses. He also refuted the doubts with his unique and distinctive methodology. He linked the verses with the reality and revived them in our current life.

In the fourth chapter, the researcher mentioned the main quranic chapters that Sayed depended on in his Jihadi thought and took his scientific power from. He talked about the relation between Jihad and other religious rituals and that they all comes in the same context, and the reason behind that. He also talked about that stages that Jihad went through and some examples on Jihad mentioned in Quran and the lessons derived from them.

In the fifth chapter, the researcher collected the suspicions raised around jihad in the sake of Allah as Sayed mentioned them in his interpretation book, then the researcher mentioned the unique replies of Sayed.

The conclusion summarizes the most important results that the researcher reaches in his study. The most important are:

1. There is a distinctive presence for the subject of Jihad in *THILAL ALQURAN*.
2. Sayed has special unique view for the subject of Jihad in the sake of Allah.
3. Jihad in the sake of Allah had a special importance and position in Sayed's book. He almost considered it as the sixth pillar of Islam.
4. From Sayed's perspective, Jihad has special features that differentiate it from the human wars.
5. The Jihad was allowed and legislated for great goals.